الفصل السادس والتسعون

الارواء

تعطي الديانات السامية الماء أهمية كبيرة . وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون الى آلهتهم بتقديم الماء الى العطاشى ، وفرضت عليهم تقديم الماء الى العطشان لاغاثته وانقاذه من الهلاك . وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك ، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة .

ولا بد ان تكون للوثنية العربية النظرة ذاتها التي نراها في الأديان الأخرى بالنسبة الى الماء ، بأن أعطته شيئاً من التقديس والأهمية ، وجعلت له مكانة في عقائدها ، وذلك قياساً على ما قلته من تقديس الأديان الأخرى له . وإن كنا نجهل ذلك لعدم ورود شيء عن ذلك في المسند . ولكن عدم ورود شيء من ذلك في المسند لا يكون دليلاً على عدم تقديس العرب الجاهليين له،لأن نصوص المسند لم تختتم بعد ، وما وصل الينا ليس إلا شيئاً قليلاً بالنسبة الى ما قد يعثر عليه في المستقبل ولا شك .

وفي الأخبار المروية عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون، والتبرك بشرب الماء منها ، دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب الساميّة وغيرها الى الماء . فالماء هو الحياة . وفي القرآن الكريم : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ولا بد أن تكون هذه النظرة التقديسية هي التي حملت الجاهليين

---

١ الانبياء ، الرقم ٢١ ، الآية ٣٠ .

على تقديس بئر زمزم . ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا قطّان هـذا البلد الكائن في وادٍ غير ذي زرع وماء ، ولولا زمزم والآبار الأخرى التي احتفرها أهله ، والآبار والعيون الواقعة في أطرافه ، يحملون منها الماء الى بلدهم حملاً ، لهلك أهله ، أو هجروه . ولا يـدرك المرء قيمة الماء إلا اذا كان في صحراء قفرة لا ماء فيها ثم نفد ماؤه . ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب ، يغيثهم بعد أن يتعرضوا للجدب والهلاك .

ولا غرابة بعد ذلك ، اذا رأينا العرب تقول في دعائها على الإنسان : ما له أحرّ الله صدره ، أي أعطشه . وفي الدعاء : سلط الله عليه الحِرّة تحت القِرّة ! يريد العطش مع البرد ؛ ورماه الله بالحرة والقرة ، أي بالعطش والبرد . وقالوا : أحرّ الرجل ، فهو محرّ : عطشت ابله[1] . وأي شيء أعظم مصيبة وخطراً على الانسان من العطش في أرض حارة !

وتعدّ بقاع جزيرة العرب من الأرضين الجافة ، فالأمطـار فيها ، ولا سيما أقسامها البعيدة عن البحر شحيحة ، والأنهار الكبيرة معدومة فيها ، والعيون قليلة أيضاً ، وجوّها جاف لا نكاد نستثني منهـا إلا سواحلها ، وهذا الجفاف صيّر القسم الأكبر من أرضها صحاري قاحلة تكسوها طبقة غليظة من الرمال في بعض الأماكن مثل الربع الخالي ، كما جعلها غير قابلة للزرع . على ان من الممكن ان تبعث الحياة في مناطق واسعة شاسعة من هذه الأرضين ، فتجعل أرضين منتجـة مخصبة نافعة ، اذا اتبعت الأساليب العلمية في معالجة الأرض ، وفي استنباط الماء ، وفي السيطرة على الأمطار والسيول التي تنشأ منها في بعض الاحيان وتغور في الرمال دون ان يستفاد منها ، بإقامة السدود والحياض الصناعية التي تخزن فيها الى وقت الحاجة ، وذلك كما فعل الجاهليون في بعض الاماكن ، وخاصة في العربية الجنوبية ، من اقامة سدود تحجز السيول وتحبسها ، فإذا انقطعت الامطار وحل الجفاف استفيد منها في الإرواء .

ونجد في بطون الكتب أسماء مواضع عديدة كبيرة كانت ذات عيون ومياه وآبار ونخيل وأناس عند ظهور الاسلام[2] ، وهي اليوم صحاري خالية أو مواضع صغيرة لا أهمية لهـا ، وذلك بسبب اهمال الانسان لها واعتدائه عليها ، وتحول

---

١ اللسان (١٧٨/٤ وما بعدها) ، (حرر) .
٢ ابن المجاور (٩/١ ، ١٦ وما بعدها ، ١٣٢) .

الطرق التجارية عنها . ويظهر أن لاشتراك القبائل في الفتوح ، ونزولها في العراق وفي بلاد الشأم والأماكن الغنية الأخرى بعد دخول هذه الأماكن في الإسلام أثراً في هجرة الناس عن مواضع العيون والآبار في الحجاز وفي بقية جزيرة العرب ، لقلة خيراتها وحاصلاتها وعـــدم تعلق الفلاح بالأرض في تلك الأماكن . أما في الوطن الجديد الذي حمله الفتح اليه ، فقد وجد فيه خيراً كثيراً وأرضاً وماءً وجواً ألطف وأرق من الجو الذي كان يعيش فيه ، وبذلك خسرت جزيرة العرب عدداً كبيراً من سكّانها ، ممن فضل الهجرة على القعود .

ومن يقرأ كتاب (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) وكتباً أخرى من هذا القبيـــل ، يعجب من التدهور الذي أصاب الزراعـــة في جزيرة العرب بعد الاسلام ، إذ يجد أسماء مواضع عديدة كانت تكفي نفسها ، أو تصدر الحاصل الزراعي الى الأسواق المجاورة ، ثم قلّ حاصلها كثيراً بإهمال الزراعة . وإعراض الناس عنها ، حتى بعض النواحي القريبة من مكة والمجاورة لها ، كانت مشهورة بالخضر والفواكه والأزهار والرياحين ، ثم فقدت شهرتها من بعد . وذكر (ابن المجاور) ان موضع (الزهـــران) كان معروفاً بزراعة (الزعفران) ، وكان الموظفون يجبون جباية لا بأس بهـــا منه ومن الزرع والضرع وسقـــي الأنهار . «فلما دار الدهر ، نقص جميع ما ذكرناه ، لاختلاف النيات مع قلة الأمانات»[1]. وفي هذا الكتاب أمثلة عديدة على هذا التدهور المؤسف الذي حل بالزرع وبالمـاء وبالأيدي العاملة المشتغلة باصلاح الأرض ، والذي كان من جملة أسبابـه ما قلته من هجرة المتمولين والمثرين والسادة الكبار من الحجاز وبقيـــة جزيرة العرب الى العراق وبلاد الشأم ، لوجود مجال واسع للإثراء ، لا مثيل له في جزيرة العرب .

وللعرب مصطلحات كثيرة في الإرواء وفي سقيهم وسقي إبلهم ، لارتباط حياتهم بالماء ، ولأثر الحر والعطش والجفاف فيهم وفي أموالهم . وفي جملة هذه المصطلحات (الشريعة) ، « مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون . وربما شرعوها دوابهم ، فشرعت تشرب منها . والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عدّاً لا انقطاع له ، ويكون ظاهراً معيناً لا يستقى بالرشاء . واذا كان من السماء والأمطار ، فهو الكرع . وقد أكرعوه إبلهم فكرعت فيه وسقوها بالكرع. وهو مذكور في موضعه كالمشرعة »[2] . وتقابل هذه اللفظة لفظة (مشرعن) في

١ ابن المجاور (١/٩) .
٢ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .

لغة المسند ، أي (المشترع) ، والمشرعة [1] .

وقد تخصص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبـار ، كما تخصص آخرون بالسيطرة عليها وحصرها بالسدود . وسمى علماء اللغة المقدر لمجاري المياه (القَناقِن) وهو مثل المهندس في هذا الفن[2] . وذكر بعضهم أن (القُناقن) البصـير بحفر المياه واستخراجها ، والمهندس الذي يعرف موضع المـاء تحت الأرض ، أو هو الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريباً أو بعيداً [3] .

وقد قسم بعض العلماء المياه المستخرجة الى ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون .

وقسّموا مياه الأنهار الى ثلاثة أقسام : أنهار كبار لم يحفرها الآدميون، وأنهار صغار ، لم يحتفرها إنسان ، وأنهار احتفرها الناس . فتكون ملكاً لمن احتفرها ، لا حق لغيرهم في الانتفاع منها .

وأما الآبار ، فآبار تحفر للسابلة ،فيكون ماؤها مشتركاً ، وآبـار تحفر للإرتفاق بمائها . كالبادية إذا انتجعوا أرضاً وحفروا فيها بئراً لشربهم وشرب مواشيهم . كانوا أحق بمائها ما أقاموا عليها في نجعهم ،فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة . وآبار مملوكة . وتكون ملكاً لمالكها لا ينازعه عليها منازع .

وقسموا العيون الى ثلاثة أقسام : عيون لم يستنبطها الآدميون . وعيون استنبطها إنسان ، فتكون ملكاً لمن استنبطها ، ويملك معها حريمها . وعيون يستنبطها الرجل في ملكه ، فتكون ملكاً له [4] .

واليمن مثل سائر أقسام جزيرة العرب ، خالية من الأنهـار الكبيرة كدجلة والفرات والنيل ، وخلوّها من أمثال هذه الأنهـار أثّرت كثيراً – ولا شك – في وضع الزراعة فيها . ولكن الطبيعة عوّضتها بعض التعويض عن هذه الخسارة ، فصار حالها أحسن كثيراً من حال الأقسام الشرقية أو الوسطى من جزيرة العرب . فجعلت لها رياحاً تحمل اليها الأمطار في مواسم معروفة ، وجعلت لها أمكنة ملائمة لخزن هذه الأمطار الهاطلة ، استبدت بها أيدي الانسان ، وتحكمت فيها بأن جعلت

---

١ Rhodokanakis, Stud., Lexi., I, S. 113.

٢ المعاني الكبير (المجلد الثاني) ، (ص ٦٤٠) .

٣ تاج العروس (٩/ ٣١٥) ، (قنن) ، المخصص (١٠/ ٣٣) .

٤ الاحكام السلطانية (١٩٧ وما بعدها) .

لها أبواباً ومنافذ ، وسدوداً في بعض المواضع ، وتمكنت بذلك من خـزن هذه الأمطار للاستفادة منها في أيام الحاجة . ثم جعلت لها تربة حسنة طيبة أريضة تنبت كل ما يبذر فيها ، وتنبت ما يتساقط عليها من بذور متطايرة مع الهواء ، حتى شاع صيتها وانتشر خبرها بين الناس ، فعرفت باليمن الخضراء .

وقد ساعدت هـذه الأمطار أهل اليمن كثيراً في تطوير أحوالهم من النواحي الاجتماعية ، فمال كثير منهم الى الاستقرار والى الاشتغال بالزراعة والتعيش منها . وساعد ذلك على سكناهم في المدر وفي القرى والمدن ، على عكس ما يحدث في الأرضين التي غلبت عليهـا الطبيعة الصحراوية لانحباس المطر عنها ، وهي حالة اضطرت أصحابها الى التنقل فيها من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، وجعلت من أصحابها أناساً فقراء ، يعيشون عيشة شظف وضنك وفقر ، مع مـا وهبتهم الطبيعة من ذكاء مفرط واستعداد للتطور إن تهيأت لهم الظروف الملائمة وساعدتهم الأحوال .

والأمطار قليلة بصورة عامة في جزيرة العرب ، فلم تعتمد الزراعة فيها عـلى الأمطار كما تعتمد في البلاد الأوروبية ، وإنما تعتمد على الجعافر والحسي والعيون والآبار . ولهذا السبب انحصرت الزراعة في الأماكن التي توجد فيها هـذه الموارد المائية . ويختلف عمق الآبار باختلاف المواقع ، وباختلاف سطوح المياه الجوفيـة عن سطح الأرض . ولما كانت بعض الآبار عميقة جداً بسبب بعد سطح مائهـا عن سطح الأرض ، لم يستفد منها في الزراعة كثيراً ، وإنما استفيد منها في شرب الانسان والحيوان فقط .

وفي العربية الغربية مواضع عديدة كانت ذات ماء ، ورد اسمها في كتب اللغة وفي كتب (الجغرافيا) والبلدان والرحلات . تكونت من سقوط الأمطـار على الجبال والمرتفعات . وبعضها ماء عذب ، وبعض منها ماء مج أو مالح ، وقد استفيد منها في السقي وفي الزرع . ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عنها ، انه قد كان في الامكان الاستفادة منها واستغلالها لأغراض زراعية ، لو كان لأهـل هذه الأرضين علم بكيفية السيطرة على الماء ، وكيفية استنباطه من باطن الأرض ، وكيفية الهيمنة عليه بحفر مجار له . فقد كانت لبني الحارث بن بُهثة بن سُليم : عيون ماء في صخور ، لم يتمكنوا من الانتفاع بها ، لأنهم لم يتمكنوا ان يجروها

الى حيث ينتفعون بها[1]. وكان في (يَلْمْلَم) عين كبيرة تخرج من جوفر من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً ، لم يزرعوا عليها إلا في يسيرة ، لأنها تجري في رمل[2] ، ولم يكن علم على ما يظهر في كيفية اسر هذا الماء من ذلك الرمل . وكان في امكانهم مسك مسايل المـاء من الجرر البحر ، وحبسها في أحباس ، بصنع سدود لها ، لو كان لهم علم ومال و كبيرة تكون عندها المؤهلات والامكانيات لعمل السدود ، للاستفادة من مياه المنابع التي كانت تجري طيلة ايام السنة ، فتحول بينها وبين الذهاب عبثـ البحر . فتحيي بذلك أرضين مواتاً وعدم وجود حكومات كبيرة تقوم بمثل الأعمال وبضبط الأمن . واشاعة الاستقرار ، هو من أهم العوامـل التي سبباً في عدم الاستفادة من المياه وفي تأخر الزراعة في جزيرة العرب ، فلو هنالك حكومات كبيرة ، لكان في وسعها الاستفادة من المياه الظاهرة والباطنة مياه السماء ، فتحيي بذلك أرضين كثيرة خصبة ، وتحمي الزرع من عبث ال وتشيع الأمن والطمأنينة في النفوس فيقبل الناس على الزرع والعناية بالضرع .

وقد ذكر (عرام) اسم موضع دعاه (ذا مجر) ، ذكر أنه غدير كبـ بطن وادي قوران ، وبأعلاه ماء يقال له (لقف) ، وهو آبار كثيرة ، عذبة ا ليس عليها مزارع ولا نخل ، لغلظ موضعها وخشونته ، وفوق ذلك ماء يق (شسي) ماء آبار عذاب[3] . وذكر اسم جبل يقال له (مغار) في جوفه أ منها حسي يقال له (الهدّار) يفور بماء كثير ، لم يستفد منها فائدة تذكر فكانت المياه تذهب عبثاً إلى سباخ لعدم وجود من يتغلب عليها بعقله وبعلمه ويستروضها لتخدمه في إحياء الأرض وفي اعاشته وإعاشة ماشيته .

أما العربية الشرقية والعربية الوسطى ، فانهما أقل مياهاً من العربية الغربيـ لقلة مـا يسقط عليها من الأمطار . ولذلك صارت مواضع الماء فيها متباعد والمسافات التي يجب أن يقطعها المسافرون من موضع الى موضع أطول من المسـ التي تقطع بين منازل العربية الغربية ، لتباعد مواضع المياه . ومن أهم موارد

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٣ وما بعدها) .

في العربية الشرقية نهر (مُحلم) بهجر البحرين . ذكر بعض أهل الأخبار أنه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم ، وأن (تبعاً) نزل عليه فهـاله . وان مياهه الجوفية متصلة بسيح الأطلس الذي يكون مخرج مائه من عين الناقة[1] .

إن قلة الأمطار أو شحّها وانحباسها في بعض السنين وعدم وجود الماء في أكثر أنحاء جزيرة العرب ، أثر أثراً كبيراً في حياة أهلهـا الاجتماعية ، فحوّل قسماً كبيراً منهم الى بـدو رحل ، يتنقلون من مكان الى مكان طلباً للكلأ والماء ، هدفهم في هذه الحياة الحصول على الكلأ والماء . والكلأ والماء هما العزّ والجـاه والثراء وأغلى شيء في هذه الدنيا ، فقاتل بعضهم بعضاً من أجل الحصول عليها، وقطعوا مسافات شاسعة بحثاً عنها . ولم يتمكن الروم والرومان من منعها من دخول بلاد الشأم بحثاً عن الكلأ والماء ، ولم يتمكن الساسانيون من منعهم مـن الوصول الى هذه الثروة العظيمة كذلك . هذه الثروة التي سببت اقتتال القبائل فيما بينها من أجل الحصول عليها .

ولحماية الماء ولا سيما مياه الآبار من اعتداء الطبيعة أو الإنسان عليه أقاموا أبنية فوقه ، في أيام الجاهلية وفي الاسلام . وقد أشار العلماء الى قباب بنيت فوق المياه، فقد اتخذ أهل بطن (السيدان) قباباً عـلى كل ماء به ، ومياهه تسمى الجرور والجرابر ، لبعد قعرها ، ولأنها لا تخرج إلا بالغروب والسواني لبعد الماء فيهـا عن سطح الأرض[2] .

انحباس المطر :

يؤدي انحباس المطر الى كوارث ومصائب تترك أثراً كبيراً في أحوال السكان. تهلك أموالهم وهي كل ما عندهم في هذه الحيـاة ، وقد يموت الكثير منهم من العطش والجوع . ولهذا عمد الناس في جزيرة العرب، كما عمد غيرهم الى استرضاء آلهتهم بالتقرب اليها بتقديم الهدايا والقرابين ، وبالتوسل اليها لانزال المطر، وبالصلاة لها صلاة خاصة يقال لها صلاة الاستسقاء، هي صلاة أقرتها الأديان السماوية أيضاً ،

---

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣١٨) .

لم يرد في نصوص المسند ويا للأسف شيئاً عنها ، غير اننا نملك نصاً جاء فيه ان شخصاً قدّم قرابين الى الإلـه (عثتر) والى معابده كلها ، لأنـه منّ على سبأ وأتباعهم ، فأرسل عليهم (سقي خرف ودثا)[1] ، أي (مطـر الخريف ومطر الربيع) . ومعنى ذلك ان القوم كانوا قد توسلوا الى هذا الإلـــه ليرسل عليهم الغيث الذي انحبس عنهـــم في موسميه المعروفين في اليمن ، ونذروا له نذراً إن استجاب لهم ، وقد استجاب لدعوتهم فأرسله عليهم ، فقدمت اليه تلك الذبائح والقرابين .

وقد تحدثت في أثنـــاء كلامي على الحياة الدينية عن عادة أهـــل الجاهلية في الاستمطار ، وعن هذه النار التي كانوا يولعونها والتي يسمونها (نار الاستمطار). وهي عادة قد تكون مألوفة بين أهل مكة وأهل الحجاز . وهي من العادات التي أبطلها الاسلام ، إذ أحل محلها صلاة الاستسقاء[2] .

وقد تهطل الأمطار أحياناً هطولاً شديداً مؤذياً ، فتكوّن سيولاً عارمة تجرف الزروع والبيوت والمواشي وتنكب الناس بعيشهم الضيق الذي هم فيـه . ونجد في كتب أهل الأخبار إشارات الى سيول عديدة حدثت في الجاهليـة والإسلام ، في الحجاز واليمن وفي أمكنة أخرى ، فأصابت الناس بأضرار كبيرة ، حيث تنحدر بشكل سريع وشديـــد وبقوة كبيرة من الجبال والهضاب والمرتفعات الى الأوديـة والسهول فتغمرها بالمياه ، وفي كتب الأخبار أن السيول قد أصابت مكـــة مراراً في الجاهلية وفي الاسلام . وهي في جملة المصائب والكوارث التي تنزل بالناس ، فلا عجب إذا ما رأينا المثل العربي يقول : « سال بهم السيل،وجاش بنا البحر . أي وقعوا في أمر شديد ، ووقعنا نحن في أشد منه ، لأن الذي يجيش به البحر أسوأ حالاً ممن يسيل به السيل »[3] .

ولفظة (سقى) من الألفاظ الواردة في المسند ، بمعنى (مطر) و (ارواء)

---

١ Rhodokanakis, Katab. Texte, II, S. 53, Glaser 1752.

٢ ألا در رجـــال خاب سعيهـــم يستمطرون لـدى الازمات بالعشر
أجاعـل أنت بيقـورا مسلعة ذريعـة لـــك بين الله والمطـــر
تاج العروس (٣/٥٤) ، (٥/٣٨٥) ، بلوغ الارب (٢/١٦٤ ، ٣٠٢) .

٣ تاج العروس (٧/٣٨٦) ، (سال) .

و (سقي)[1] . ولفظة (مسقت) و (مسقيت) بمعنى (مسقى) و (مسقية). ووردت لفظة الإرواء في النصوص العربية الجنوبية كذلك : وردت في نص معيني على هذه الصورة (رويم) (روي) بمعنى (ارواء)[2] ، وذلك كما في هذه الجملة : « رويم لا نخلهمى » ، أي « لارواء نخيلهم »[3] ، وفي هذا المعنى جملة : (رويم وسقيتم لنخلهمو)[4] ، أي « ارواء وإسقاء نخيلهم » .

و (المكر) سقي الأرض ، وأرض ممكورة ، مسقاة ، ومكر أرضه، سقاها[5].

أنواع السقي :

ويسقى الزرع في جزيرة العرب ، إما بالسيح ، والسيح الماء الجاري الظاهر على وجه الأرض[6] ، ويقال له : (المسقوي)[7] ، وإما بماء المطر ، أى بما تسقيه السماء ، ويقال له : (المظمّى)[8] ، وإما من الآبار . أي بالدلاء. وقد تستخدم النواعير في رفع الماء من الأنهار الى السواقي لتجري الى المزارع ، أي بالطرق الفنية التي يستخدمها الانسان في تسخير الماء في خدمته .

ويقال لما سقته السماء من النخل (العثري) . وقيل (العُثرى) هو من الزرع ما سقي بماء السماء والمطر وأجري اليه الماء من المسايل ، وقيل النخيل التي تشرب بعروقها من ماء المطر[9] . وفي هذا المعنى (العذي) ، والعذي أيضاً الموضع الذي ينبت في الشتاء والصيف من غير نبع ماء ، وقيل العذي : الزرع الذي لا يسقيه إلا المطر[10] . وقد اتخذت المرتفعات وذرى الجبال قرى ومزارع ، صارت زراعها

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 119.

٢ Halevy 174.

٣ Rhodokanakis, II, S. 129.

٤ Glaser 423, Rep. Epigr. 852.

٥ تاج العروس (٣/٥٤٨) ، (مكر) .

٦ تاج العروس (٢/١٦٨) ، (السيح) .

٧ تاج العروس (١٠/١٧٩) ، (سقى) .

٨ تاج العروس (١٠/١٧٩ ، ٢٣٢) ، (سقى) ، (الظمياء) .

٩ تاج العروس (٣/٣٨٢) ، (عثر) ، اللسان (٣/٣٨٢) ، (عثر) .

١٠ تاج العروس (١٠/٢٣٩) ، (عذى) .

أعذاء ، لا تسقى[1] . و (عمد) الأرض التي تسقى بماء السماء في لغة المسند[2] . ونقرأ لفظة (أعذاء) في كتب من وصف جزيرة العرب ومواضعها وزروعها[3] ، وقد قصدوا بها زروع نبتت على ماء السماء .

المطر :

ويقال للمطر في المسند (ذ ن م م) (ذنمم) . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص[4] . ويقال له (دثن) أيضاً[5] . وهي (الدث) في عربية القرآن الكريم، يقال دثت السماء اذا نزل منها الدث ، والدث هو المطر الضعيف[6] . ويراد بـ (دثن) (الدث) في المسند ، المطر الذي يتساقط بعد الحرّ الشديد وفي نهاية القيظ .

ويقال للمطر الغيث كذلك . وذكر بعض علماء اللغة أن الغيث هو المطر الخاص بالخير الكثير النافع ، ومن المجاز : الغيث بمعنى الكلأ ينبت بماء السماء ، وكذا السحاب . ورأى بعض العلماء أن الغيث اسم المطر كله . وأما السبل ، فالمطر أيضاً ، أو المطر بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ولم يصل الى الأرض ومثله العثانين . وأما الودق ، فالمطر أيضاً . ومنه النزل والرجع في كلام هُذيل . وكذلك الخرج والقطر والخدر . وقيل : النصر ، الغيث . والذهاب اسم المطر كله ضعيفه وشديده[7] . و (الدِّيمة) ، مطر يدوم أي يطول زمانه أياماً . وأرض مديمة ، أصابتها الديم ، والمدام المطر الدائم[8] . و (الديمن) و (الديم) ، هو الزرع الذي يسقى بماء المطر ، في اصطلاح أهل العراق اليوم .

واذا بكر الغيث في أول الوسمي ، قيل له (باكور)[9] . أما آخر أمطار السنة

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٠٧) .
٢ Jamme, South Arabian Inscriptions, p. 445.
٣ بلاد العرب (٣٠٥) .
٤ Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 101, Num. 76, S. 238, Num. 171.
٥ CIH 540.
٦ تاج العروس (١/٦٢١) ، القاموس (١/١٦٦) .
٧ تاج العروس (١/٦٣٢) ، (٩/١٢٠ وما بعدها) ، المخصص (١١/٥) .
٨ تاج العروس (٨/٢٩٦) ، (دوم) .
٩ تاج العروس (٣/٥٧) ، المخصص (١١/٨) .

الذي يأتي في وقت الخراف ، أي أواخر الخريف[1] ، فإنه (خرفن) في نصوص المسند ، أي (الخراف) .

ويقال للمطر الـذي ينزل في فصل الخريف : (الخريف) ، ويقال له : (الخرفي) كذلك ، أو هو أول المطر في أول الشتاء ، وهو الذي يأتي عند صرام النخل ، ثم الذي يليه الوسمي . وهو عند دخول الشتاء ، ثم يليه الربيـع ، ثم يليه الصيف ، ثم الحميم . وقال بعض علـماء اللغـة : أول المطر الوسمي ، ثم الشتوي ، ثم الدفىء ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، ثم الخريف ، ولذلك جعلت السنة ستة أزمنة . وقال أبو حنيفة : ليس الخريف في الأصل باسم للفصل، وانما هو اسم مطر القيظ ، ثم سمي الزمن به . والحجاز كله يمطر بالخريف ، ونجد لا تمطر به[2] .

والمزن السحاب . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . ويقول علماء اللغة ان المزن جمع مزنة ، وهي السحاب الأبيض . وقد كان جل اعتماد أهـل جزيرة العرب في الشرب ، وفي الإرواء على ماء المطر . كما نجد ذلك في الآية : «أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن ، أم نحن المنزلون »[3] .

ولارتباط حياة العرب بالمطر،كثرت الألفاظ المتعلقة به في لغتهم . ففي معاجم اللغة ألفاظ كثيرة في معنى المطر وفي أمور تتعلق به ، في مثل السحاب ، وأنواعه وأسماء قطعه ، وما شاكل ذلك من ألفاظ وأسماء ، تمثل لك مدى عناية العرب بالمطر ، لشدة حاجتهم اليه .

وللعرب علامات إذا ظهرت دلت عندهم على أنها أمارات الغيث وعلاماته ، منها الهالة التي تكون حول القمر ، إن كانت كثيفة مظلمة ، كانت من دلائل المطر ، ولا سيما إن كانت مضاعفة . ومنها (الندأة) ، وهي الحمرة التي تكون عند مغرب الشمس أيام الغيوث . والمبشرات ، وهي عدة علامات تتوالى ، تدل عندهم على نزول الغيث . ومنها الرعد والبرق،ومنها أن ترى القمر أو الكواكب في الصحو يحيط بها لون يخـالف لون السماء ، وكذلك إن رأيت القمر في الغيم

---

١ المخصص (١١/٥) .
٢ تاج العروس (٦/٨٢) .
٣ تاج العروس (٩/٣٤٥) ، (مزن) .

وإن كان قزعاً كأنه تحيط به خطوط كخطوط قوس المزن ، وهي القسطانيـــة . وبعض الرواة يجعل قوس الغيم أيضاً بدأة [1] .

وهم يعتبرون الغيث نعمة ورحمة ، ولهذا كانوا يفرحون بنزوله ويستبشرون ، لا سيما إذا كان نزوله بعد قحط وجدب . ويهنأ أحدهم الآخر بانصبابه لما سيصيبهم جميعاً من خير عميم . ولكنه قد يصير نقمة إذا نزل سيـــلاً مدراراً ، يكتسح كل شيء يجده أمامـــه ، وقد تمتلىء به بطون الأودية ، فتغرق سيولهـــا القرى والمستوطنات . مثل ما كانت تصاب به مكة من السيول . فمكـة في وادٍ على طرفيه جبال ، إذا نزلت عليها الأمطار سالت الى بـــاطن الوادي ، فتؤذي البلدة والحرم ، وقد أقيمت الردم لمنع السيول من اغراق الحرم ؛ والبيوت ، غير أن السيول تكون قاهرة جبارة في بعض الأحيان ، فلا يقف أمامها ردم ولا سكر. وقد أشار أهل الأخبار الى المهم من هذه السيول [2] .

وقد هددت السيول يثرب بالغرق أيضاً ؛ مع انها ليست في وادٍ ، وذلك من سيل (مهزور) . وقد أقام (عثمان) ردماً لمنع سيل هذا الوادي من اغراق المدينة [3] .

الاستفادة من مياه الأمطار :

وقد اضطر سكان جزيرة العرب ان يلجأوا الى الوسائل الصناعية للاستفادة من المياه ؛ وذلك لقلتها وشحها ، سواء أكانت مياه أمطار أم مياه أرض ، متدفقة من أجواف الأرض على هيأة عيون أو جعافر . وفي جملة ما اتخذوه اقامة السدود في الأرضين التي تساعد طبيعتها على اقامة السدود ، وحفر الآبار للاستفادة منها في السقي وفي الزراعة بمقياس يتناسب بالطبع مع كميات مياه الآبار .

وقد اتخذ أهل المواضع المرتفعة مثل الأماكن الجبلية التي يصعب نقل الماء اليها كل الوسائل الممكنة للمحافظة على ماء المطر والسيطرة عليه وجمعه لئـــلا يذهب

---

١ « قوس المزن » ، تاج العروس (٥/٢٠٦) ، القاموس (٢/٢٧٩) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٥) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٤) .

سدى ، فحفروا الصهاريج العميقة في البيوت وفي أماكن أخرى ليسيل اليهـا ، وسلطوا مياه الميازيب على أماكن تسيل منها الى هذه الصهاريج . ولا يزال بعض الميازيب الجاهلية في حالة جيدة يستعمل في الأغراض التي صنع من أجلها . وهي مصنوعة من الصخور ، وبعضها من المرمر الأبيض الجميل . وفي مسجد (حصن غيمان) ، صهريج جاهلي قديم ، يستعمل لخزن المياه . وهناك صهاريج عديدة في هذا الموضع ، كلها من ايام الجاهلية . وبعضها مفتوح على هيـأة حوض ، وأكثره من النوع المغطى والمنقور في الصخر . وقد تساقطت سقوف بعض هـذه الصهاريج أو أصيبت بتلف في بعض أقسامها وظهرت هياكلها للعيان ، فعرفت أشكالها وأعماقها ، ولبعضها ممرات توصل بعضها ببعض ، فتجعلها كأنها شبكـة تربط مساحة واحدة تملأ بالماء تحت سطح الأرض. ولهذه الصهاريج فتحات تستخرج منها المياه للارواء[1] .

ولهذه الصهاريج أهمية خاصة في ايام الحروب ، إذ تمنع العدو من قطع الماء عن المحاصرين ، وبذلك يستطيعون البقاء مدة طويلة يدافعون عن أماكنهم خلف الأسوار .

وقد استخدمت الصهاريج لخزن الماء ، حتى البيوت استخدمتها لذلك ، فكان إذا وقع الغيث سال الى هـذه الصهاريج فخزنته . وقد اتخذ أهل المدن الصهاريج الكبيرة لتموين النـاس بالماء ، وبنوا الصهاريج في المعابد ليستفيد منها المتعبدون القادمون اليها ورجال الدين .

وقد عثر على صهاريج عديدة في حضرموت وفي اليمن ،عرفت عند الحضرميين بـ (نقب) . وهي عبارة عن حفر نقرت في الصخور وفي المواضع الحجرية وفي مواضع أخرى ، يبلغ قطر أفواهها وفتحاتها زهاء المتر في الغالب . أما أعماقهـا فهي مختلفة وكذلك أقطارها السفلى أي من جهة قواعدها . فقد عثر على بعضها، وأعماقها تتراوح من ثلاثة أمتار الى أربعة ، وأقطارها السفـلى تتراوح من خمسة أمتار الى ستة . ويقال لعملية الحفر (نقب) كما في هذه الجملة : (نقبو نقب)[2] أي (نقبوا نقباً) ، ومعناها (حفروا نقباً) و (حفروا صهريجاً) .

---

١ Sabaeica, I, S. 76.

٢ Ry 63, Wissmann und Höfner, Beiträge, S. 56.

وتوصل هذه الصهاريج بمجاري تحت الأرض قد يبلغ أطوالها جملة كيلومترات لايصال الماء منهـــا الى مواضع السكن أو الزرع . وتكون الصهاريج مرتفعة عن مسايل المياه الأرضية ، ليسيل منها الماء الى الجهات التي تريدها . ويكون معينها هو ماء المطر[1] . ويظهر أن طريقة توزيع الماء من النقاب بمسايل للمياه أرضيـــة كانت شائعة قبل الإسلام في المدن والقرى المرتفعة البعيدة عن الغيـــول والنهيرات والآبار والتي تتساقط فيها الأمطار ، فلجأت الى هذه الطريقة الفنية لحبس ميـــاه الأمطار للاستفادة منها في الشرب والاستعمال وفي الزراعة أيضاً .

الذُّهب :

ويقال لموضع تجمع مياه الأمطار ومسيلها (ذهبن) ، أي (الذُّهب) . ويستخدم هذا الماء المتجمع لاسقاء الحيوان وللشرب ولإسقاء الزرع ، قـــال (الهمداني) : « والذُّهب ... يمتلىء من السيل ، فإذا امتلأ نف فيه الطهف والدخن ، فنضب الماء ، ثار نبته »[2] . وقد كانوا يستفيدون من أمثال هذه (الذُّهب) بتسويرهـا وحصر الماء فيها ثم توجيهها الى الأحواض الكبرى للاستفادة منها عند انحباس الأمطار .

وكانت أشراج الحرة يثرب من مسايل الماء ، فإذا هطلت الأمطـار انحدرت اليها وامتلأت بها فتسيل الى الأرضين المزروعة ترويها بالماء[3] . وقد تحبس الشراج فتكون أحواضاً يستفاد منها في السقي والزرع .

وهناك حفر تتجمع فيها المياه فيستفاد منهـــا في الشرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً عديدة تتعلق بالحفر على اختلاف أنواعها ، وفي جملتها الحفر التي تتجمع فيها المياه . وذلك لكثرتها ولأهميتها في حياتهـم العملية ، إذ كانت على ضآلـــة بعضها ووسخ مائها ، غوثاً للمسافرين العطاشى الذين هم ودوابهم في آخـر رمق من الحياة . فهي تكون في مثل هذه الظروف هبة ولقطة لا تقدر بثمن .

ومن مواضع تجمع الماء في الحفر الأوقة ، وهي حفرة يجتمع فيها الماء،وجمعها

---

١ Beiträge, S. 54. ff.

٢ الهمداني ، صفة (١٩٩) . Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 113.

٣ البلاذري ، فتوح (٢٥ وما بعدها) .

أوق[1] . والوجيل والمَوْجل ، حفرة يستنقع فيها الماء يمانية[2] . والمرهة ، حفيرة يجتمع فيها ماء السماء[3] . والهَوْقة ، وهي حفرة كبيرة يجتمع فيها الماء ، وتألفها الطير[4] . و (الركية) البئر . وقد كانوا يتبردون بها في ايام الحر[5] . و (المركو) ، الحوض الكبير وقيل الحويض الصغير يسويه الرجل بيديه على رأس البئر اذا أعوزه إناء يسقي فيه بعيراً أو بعيرين[6] .

والنقر ، الغـــائر من الأرضين ، وهي موارد الماء في جزيرة العرب . اذا احتفرت ، ظهر الماء بسهولة في آبارها ،وقد تظهر البرك فيها . ومن هذه النقر ، موضع (معدن النقرة) ، منزل لحاج العراق بين أضاخ وماوان . فيه بركة ، وثلاث آبار ، بئر تعرف بالمهدي ، وبئران تعرفان بالرشيد ، يظهر أنها حفرت في أيام الخليفتين: المهدي والرشيد، وآبار صغار للأعراب . وعندها تفترق الطرق، فمن أراد مكة نزل المغيثة ، ومن أراد المدينة أخذ نحو العسيلة . ذكر أن هـــذا الموضع إنما سُمّي نقرة ، لأن النقرة كل أرض متصوبة في هبطة فهي نقرة[7] .

الحياض :

وقد ترك الجاهليون حياضاً واسعة كانوا أنشأوها في مواضع كثيرة من اليمن وبقية العربية الجنوبية لخزن الماء فيها للاستفادة منها أيام الجفاف . فإذا ما تساقطت الأمطار ، سالت الى هذه الحياض ، وبعضها عميق واسع لا تنضب منها مياهها طوال السنة . وقد أحيطت هذه الحياض بجدران متينة من الصخور صفت ورتبت على هيـــأة مدرجات ، حتى إذا انخفض الماء أمكن لمن يريد الاستسقاء منها أن

---

١ « الاوقة بالضم : الركية مثل البالوعة في الارض ، خليقة في بطون الاودية ، وتكون في الرياض أحيانا . تسمى اذا كانت قامتين أوقة . فما زاد وما كان أقـــل من قامتين ، فليست بأوقة . وفمها مثل الركية وأوسع أحيانا . وهي الهوة » ، تـــاج العروس (٦/٢٨٢) .

٢ تاج العروس (٨/١٥٣) .

٣ تاج العروس (٩/٤١١) .

٤ المخصص (١٠/٤٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٧/٩٧) .

٥ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) ، جامع الاصول (٩/٣٢١) ٤

٦ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .

٧ تاج العروس (٣/٥٨٢) ، (نقر) .

ينزل على هـــذه الدرجات حتى يبلغ الماء ولا يزال بعض هذه الحياض موجوداً يستعمله الناس . وقد وصف السوّاح الذين زاروا اليمن بعضها وتحدثوا عنها وعن أبعادها وعن طرق بنائها وهندستها [1] .

ولمنع تسرب المـــاء من الحوض ، يسدّ ما بين الحجـــارة من منافذ بالمدرة المعجونة ، وتطلى أوجه الجدر بمادة تغطيها مثل الصهريج لمنع تسرب الماء وخروجه الى الخارج ، كما يبلط قاع الحوض ويطلى كذلك . وتوضع حجارة تنصب حول الحوض ، ويسد ما بينها بالمدرة ، ويقال لذلك النصيبة . ويمدر الحوض اذا طين وسُدّ خصاص ما بين حجارته ، كما يعبر عن ذلك بلفظة اللوط . ويوضع الإباد حول الحوض ، أي التراب ، لدعمه وتقويته . وقد ترفـــع جدر الحوض فوق الأرض ، وتعمل فيه صنابير لخروج الماء فيها ، وقد تنشأ فيها حنفيات لأخذ الماء منها . تعمل من المعدن أو الحجارة [2] .

وقد عثر على ميازيب ومثاعب حجر نحتت نحتاً جميلاً ، وضعت في جدران الأحواض ، ليسيل منها الماء [3]. وقد صنعت مواضع مسايل بعضها على هيأة رؤوس حيوانات فنحت أفواهها ، ومن هذه الأفواه المفتوحة يتساقط المـــاء . ولا يزال بعضها في هيأة حسنة ومستعملة حتى الآن . واستعملت بعضها في السطوح لسيلان الأمطار منها ، كما عثر على صخور منحوتة نحتاً جميلاً جداً كانت تكوّن الواجهة الظاهرة من جدران الحياض . وقد نحت بعضها على شكل صور حيوانات بارزة أو أوجه حيوانات ، ونحت بعضها على صور أوراق نبـــات وأغصان أعناب أو عناقيد أعناب وما شابه ذلك من أجزاء النبات .

وثعب الماءُ سالَ ، ومنه اشتق مثعب المطر . والثعب مسيـل الوادي ، ومنه مثاعب المدينة ، أي مسايل مائها . والمثعب المرزاب [4] .

وتعمل الأحواض لشرب الإبل وغيرها . وقد يوضع في وسطها حجر ، يكون مقياساً للماء ، يقال له (القداس) إذا غمره الماء رويت الإبل ، أو هـــو حجر يطرح في حوض الإبل ، يقدّر عليه الماء ، يقتسمونه بينهم . وقيل هو حصاة ،

---

١ Carl Rathjens, Sabaeica, I, Teil, Hamburg, 1953, 113.
٢ المخصص (١٠/٤٩ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١/١٤٧) ، (أزب) .
٤ تاج العروس (١/١٦٣) ، (ثعب) .

توضع في الماء قدر الري للابل ، أو يقسم بها الماء في المفاوز[1] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على الحوض ، بحسب شكله واتساعه وعمقه منها الحوض المركو . أما المقراة ، فالحوض العظيم . وأما الجرموز ، فالحوض الصغير ، وقيل هو حوض مرتفع الأعضاد . والنضيج الحوض ، وخصه بعضهم بالحوض الصغير . والجابية الحوض كذلك . وأما الشَّرَبة فالحوض يجعل حول النخلة يملأ ماء ، فيكون ري النخلة . والحضج الحوض[2] .

ويقال لموضع تجمع الماء ، والمكان الذي يخزن فيه فيكون على هيأة بحيرة صغيرة أو حوض (بحرت) ، (البحرة)[3] . ولا يزال أهل الشأم يطلقون لفظة (بحرة) على حوض الماء الذي يقيمونه في أفناء دورهم ، للتمتع بمنظره وبمنظر الماء الذي يتدفق منه . وقد يضعون الأسماك فيه . وقد وردت اللفظة في هذه الجملة : « وصرح ثبرن وبحرت بموثب احلين »[4] ، ومعناها : « وأعلى حصن ثبر ، والبحرة الكائنة في أسفل السلالم » . ويظهر ان أصحاب الحصن كانوا قد أقاموا (بحرة) عند قاعدة السلالم التي ترتقي الى الحصن،وذلك من أجل نقل الماء منها الى أعلى للاستفادة منه ، ولاحمائه وسكبه على المحاصرين في أثناء الحصار[5] .

والمقرى والمقراة كل ما اجتمع فيه الماء من حوض وغيره ، وخصه بعضهم بالحوض . وذكر بعضهم ، ان المقراة المسيل ، وهو الموضع الذي يجتمع فيه ماء المطر من كل جانب . وقيل المقراة شبه حوض ضخم يقرى فيه من البئر ، ثم يفرغ في المقراة . وقريّ الماء مسيله من التلاع ، أو مجرى الماء في الروض[6] .

ويقال للموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي يجتمع : (النقيع) ، فإذا نضب الماء نبت فيه الكلأ[7] . و (المنقع) الموضع الذي يستنقع فيه الماء ، أي

---

١ تاج العروس (٤/٢١٣) .
٢ المخصص (١٠/٤٩) .
٣ « والبحرة مستنقع الماء » ، تاج العروس (٣/٢٨ وما بعدها) ، Glaser 1144, Halevy 353, Rep. Epigr. 647, II, p. 75.
٤ راجع نهاية الفقرة الثالثة من النص : Glaser 1144, Halevy 353.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 73.
٦ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .
٧ ارشاد الساري (٤/٢٠٦) .

يجتمع[1] . و (الحيل) الماء المتنقع في بطن واد[2] .

ويقال لموضع تجمع المياه في خزانات صغيرة لخزنها فيها وتوزيعها على السواقي (مزف) . تأتي المياه اليها من خزانات أخرى أكبر منها . فتخزن فيها لإعادة توزيعها . والفعل هو (زف) من (زفف) . وتطلق لفظة (زف) على مواد عمل ما . وأما العمل نفسه فيقال له (فعل)[3] .

وقد أشير في نص الى وجود (هور) أمـام (محفـد) ، اي حصن : (بقنو هور محفدهمو ذ معينن)[4] ، ومعناها : (أمام هور محفدهم « حصنهم » ذي المعين) . و (هور) في هذه الجملة هو (الهور) في عربيتنا . وهو (بحيرة تغيض فيها مياه . فتتسع ويكثر ماؤها) ، ويجمع على أهوار[5] . أما في النص ، فلا يراد به هذا المتسع الواسع من الماء ، بل يراد به حوض أو متجمع من الماء أوسع من البحرة ، كان أمام الحصن[6] .

وقد وردت لفظة (بركتن) أي البركة في اللهجات العربية الجنوبية كذلك ، ووردت لفظة أخرى هي (عسن) يظهر أنها تعني بركة كبيرة أو صهريج ماء تحت الأرض ، أو جملة برك تتصل بمأخذ أو مآخذ ، تتجمع فيها المياه[7] . وقد ذكر علماء اللغة أن البركة مثل الحوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض . ويسمي العرب الصهاريج التي سويت بالآجر وصرجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً . وربّ بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر . وأما الحياض التي تسوى لماء السماء ، ولا تطوى بالآجر ، فهي الأصناع واحدها صنع[8].

وقد طليت جدران البرك الجاهلية بمادة متماسكة قوية ، ترى اليوم وكأنها قد فرغ منها من عهد قريب . فلم تتشقق ولم تصب بتلف إلا قليلاً . فيهـا فتحات عملت لمرور الماء منها الى السواقي . وقد استعمل مثل هذه البرك لخزن الماء وللارواء

---

١ تاج العروس (٥/٥٣٠) ، (نقع) .
٢ تاج العروس (٧/٢٩٨) ، (حيل) .
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 100.
٤ Langer I, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٥ تاج العروس (٣/٦٢٤) ، (هور) .
٦ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 37.
٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 114.
٨ تاج العروس (٧/١٠٦) ، (برك) .

في الوقت نفسه.وتمكن الاستفادة منها إذا ما نظفت من المواد الزائدة التي تراكمت فيها وأدخلت عليها بعض الإصلاحات[1] .

و (الأضاة) الغدير ، والماء المستنقع من سيل أو غيره[2] . والغدير مستنقع الماء ، ماء المطر صغيراً كان أو كبيراً ، غير أنه لا يبقى الى القيظ إلا ما يتخذه الناس من عـــدّ ووجد أو وقط أو صهريج أو حائر . والعدّ الماء الدائم الذي لا انقطاع له . ولا يسمى الماء الذي يجمع في غـدير أو صهريج أو صنع عداً ، لأن العدّ ما يدوم مثل ماء العين والركية[3] . ويعبر عن (الغدير) بـ (النهي)، وقيل النهي الغدير حيث يتحير السيل فيوسع ، وكل موضع يجتمع فيـــه الماء أو الذي له حاجز ينهى الماء أن يفيض منه[4] .

وفي كتب اللغة ألفاظ عديدة أطلقت على النهيرات والسواقي المتفرعـــة منها . ومنها الشراج ، جمع شرج،وهي مسايل الماء من الحَزْن الى السهل . والأربعاء، وهي مسايل ومساقي يسقى منها النخيل والبساتين ، ويزرع عـلى جانبيها[5] . وأما (الجعافر) ، فقيل : (الجعفر) النهر ، وقيل هو النهر الصغير ، وقيل هو النهر الكبير الواسع : وقيل النهر الملآن ، أو فوق الجدول[6] .

ويقال للجدول الربيع في عربية القرآن الكريم ، ويجمع على (أربعاء)[7].وأهل المدينة يغرسون الشجر على جانبيه . ويقال له أيضاً (السعيد) . ويراد به النهير الذي يسقي المزرعة . وقد ورد في الحديث : « كنا نزارع عـــلى السعيد »[8] . و (الجدول) النهر الصغير[9] . ويقال لأوائل الجداول (أقبال الجداول)[10] . وأما السواقي بين الزروع ، فتسمى (دبار)[11] .

---

١ Sabaeica, I, S. 84.
٢ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٦) .
٣ تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨١) ، (نهى) .
٥ عمدة القارىء (١١/٢٠٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٣/١٠٤) ، (جعفر) .
٧ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) ، جامع الاصول (١١/٣٧٠ وما بعدها) .
٨ تاج العروس (٢/٣٧٨) ، « سعد » .
٩ تاج العروس (٧/٢٥٤) ، (جدل) .
١٠ جامع الاصول (١١/٤٧٨) .
١١ تاج العروس (٣/٢٠٠) ، « دبر » .

ويطلق أهل اليمن على ساقية الماء والجدول الصغير (الغيـــلَ) ، وهي من الألفاظ القديمة المستعملة في الري . وفي اليمن جملة أغيال ، يقل ماؤها عنـــد انحباس المطر ، ويزداد عند هطوله في مواسمه . ويشرب أهل صنعاء من مياه الغيل المسمى (الغيل الأسود) ، ويزرعون عليه[1] . وذكر علماء اللغة ان الغيل المـــاء الجاري على وجه الأرض ، وقال بعضهم ما جري من المياه في الأنهار والسواقي . وأما الذي يجري بين الشجر ، فهو (الغلل) . « وفي الحديث ما سقي بالغيل ففيه العشر ، وما سقي بالدلو ، ففيه نصف العشر »[2] .

الأودية :

والأودية هي من أهم مناطق الماء والخصب في جزيرة العرب ، وذلك لوجود الماء بها قريباً من سطح الأرض في الغالب ، وقد يخرج الى وجه الأرض . ولهذا نجد فيها مواضع عديدة خصبة ذات مزارع ونخيل منتشرة كأنها الجزر في البحار. وهي في الأصل مسايل ماء ، حفرتها الأمطار والسيول المنهمرة على الجبال والهضاب والتلال ، في سيرها نحو الأماكن المنخفضة ، وعملت لها منافذ سارت مياهها منها. و (الوادي) ، هو (سر) (س ر) في العربية الجنوبية[3] . وذكر علـــماء اللغة أن (السرّ) بطن الوادي وأطيبه وأفضل موضع فيه ، وكذلك سرارة الوادي، أي بالمعنى الوارد من اللفظة في المسند ، أو قريب منه[4] .

ومن أودية جزيرة العرب : وادي الحمض ، ووادي الدواسر، ووادي الرمة، ووادي حنيفة ، ووادي تبالة ، ووادي رنية ، ووادي تربـة ، وغيرها مما يرد في كتب (الجغرافيا) وما ألّف في وصف جزيرة العرب ، أو وصف بقاعها، وفي كتب البلدان .

ولهذه الأودية فضل لا ينكر في ظهور مواطن الحضارة في جزيرة العـــرب ، ففي بواطنها وعلى جانبيها قامت مواطن استيطان منها نبتت الحضارة الأعرابيـــة

---

١ تاج العروس (٨/٥٣) ، العظم (١/٨٥ ، ١٠٣) .
٢ تاج العروس (٨/٥٣) ، (غيل) .
٣ Mordtmann und Mittwoch, Alt. Sab. Inschr., S. 9.
٤ تاج العروس (٣/٢٦٣) ، (سرر) .

في جزيرة العرب ، حضارة تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة الى الحياة الأعرابية، عمادها الزراعة وتربية الحيوان . وهي تثبت للمرء بجلاء ان سبب انتشار الأعرابيـــة في جزيرة العرب ؛ هو الجفاف الذي غلب عليها وندرة وجود الماء بها ، وان الماء لو توفر بها ، لكان نصيبها في الحضارة مثل نصيب غيرها من البلاد التي تقدمت في ايامها وازدهرت ، فلما ظهر الماء في هذه المواضع ، ظهر السكن والاستقرار، ولو رزق العرب سكان جزيرة العرب ما رزق غيرهم من جو طيب، ومن أرض خصبة ذات أنهار وماء ، كان شأنهم غير هذا الشأن ولا شك .

ويقال للوادي (العقيق) . وذكر أن العقيق كل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه[1] . أي في معنى وادي . والأعقة من مواضع الخصب والزرع في جزيرة العرب ، إذ تكون المياه فيها قريبة من سطح الأرض . منها عقيق اليمامة ، وهو وادٍ واسع مما يلي العرمة ، تتدفق فيه شعاب (العارض) ، وفيه عيـــون عذبة الماء ، وموضع بتهامة ، وموضع بنجد ، يقال له عقيق القنان ، تجري اليه مياه قلل نجد وجباله ، والعقيق ، ستة مواضع أخر ، وهي أودية شقتها السيل عادية منها عقيقان في بلاد بني عامر من ناحية اليمن . ومن الأودية المشهورة : وادي العتيق بالحجاز[2] . و (العرمة) أرض صلبة تتاخم الدهناء ويقابلها عارض اليمامة[3] .

والأودية هي من أخصب المواضع في جزيرة العرب ، حتى إن كانت جافة في معظم أيام السنة ، وذلك لخصب تربتها ، ولقرب الماء فيها من سطح الأرض، ولوجود العيون والبرك في بعض منها . وهي قبلة أنظار الأعراب والرعاة بعد نزول الغيث وامتلائها بالسيول ، إذ يظهر فيها الكلأ : وتبقى في حفرها المياه ، فتكون بركاً للشرب .

وقد زرع أهل وادي (مهزور) على مياهه ، ويستمد هذا الوادي ماءه من السيل ، وكذلك وادي (مذينيب) . ومن (مهزور) الى (مذينيب) شعبة يصب فيها[4] . ويسيلان بماء المطر خاصة ، و (مهزور) هو وادي (بني قريظة) ، وقد كان يحدث اختلاف فيما بين المزارعين في حقوقهم في المـــاء ، ولا سيما في

---

١ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٢ تاج العروس (٧/١٥) ، (عق) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٥) ، (عرم) .
٤ البلاذري ، فتوح (٢٣ وما بعدها) .

ايام انحباس المطر أو أيام نزوله بشح ، واستغلال أهل الأرضين العالية للسماء ، مما يسبب انقطاعه عن الأرضين الواطئة الواقعة على مسايله . وقد كان (مهزور) يهدد المدينة بالغرق عند سقوط الأمطار بشدة وتكوينها سيولاً طاغية ، ولما هدد المدينة بالغرق في خلافة (عثمان) اتخذ له ردماً[1] . وقد هدد المدينة مراراً بالغرق، ولما كاد ان يغرقها سنة (١٥٦ هـ) حفرت الحكومة له منسوباً ، غاص منه الماء الى وادي بطحان[2] . وقد قضى الرسول في سيل (مهزور) ان لأهل النخل الى العقبين ، ولأهل الزرع الى الشراكين ، ثم يرسلون الماء الى من هو أسفل منهم[3].

و (بطحان) هو أحد أودية المدينة الثلاثة ، وهي العقيق وبطحان وقناة[4] .

الأنهار :

وليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر ، مثل نهر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك لم تستفد من نعم الأنهار الكبيرة التي نعمت بها البلاد الأخرى ، ولم تسعد بسبب ذلك بظهور المجتمعات الكبيرة بها ، ولا بظهور الحضارة فيها ، لأن الحضارة الراقية لا تكون ولا تنمو إلا في المجتمعات الكبيرة ، حيث تتوفر بها بذور الحضارة والثقافة ، ولا تظهر هذه البذور مع وجود الجفاف وفقدان الماء أو قلته .

ومن الأنهار الصغيرة التي نجدها في اليمن نهر الخارد . وكان السهل الذي عاش فيه المعينيون،وبنوا فيه عاصمتهم يسقى بهذا النهر ، وتنبت فيه مختلف النباتات والزروع ، وكان يصل الى مقربة من العاصمة وربما تجاوزها الى مواضع أخرى ٥ ولا تزال هذه المنطقة تعدّ من المناطق الزراعية الجيدة ، وقد تحول قسم منها بسبب الجفاف الذي حلّ بها الى مناطق تعلوها كثبان رملية ، ومناطق قاحلة ، بعد ما كانت من أجود الأرضين لأهل معين[5] .

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٣ تاج العروس (٣/٦٢٠) ، (هزر) ، البلاذري ، فتوح (٢٤) .
٤ تاج العروس (٢/١٢٥) ، (بطح) .
٥ محمد توفيق ، آثار معين في جوف اليمن (ص ٤ وما بعدها) ، من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

ومن أنهار اليمن الأخرى ، مَوْر ، وهو من أغزر أنهار اليمن ماءً وأكبرها، وهو بالقرب من وادي (صبيا) . ينبع من جبال الهضبة الى جنوبي صعدة ، وتصب فيه أودية من (عمران) و (حجة) ، ويمر من جبال (حجة) وجبال (حجور) في اتجاه البحر الأحمر حيث يصب به شمال (اللحية) . وتجري الأقسام الشرقية من هذا النهر في أكثر أيام السنة [1] .

وسُردد ، واد متسع بتهامة اليمن ، مشتمل عـلى قرى ومـدن وضياع [2] . ويتألف من فروع تنبع من جبال (كوكبان) ومن جبال حضور وحراز ، ويصب في البحر الأحمر شمـال (الحديدة) [3] . ووادي سهام واد ينبع من جبال خولان وآنس ، ماراً بجنوبي جبال حراز ، ثم يصب في البحر الأحمر جنوبي الحديدة [4]. وبه مياه حارة [5] . ووادي (أذنة) من أودية سبأ ، وهو الذي كان يموّن سد مأرب بالماء . ومن أودية اليمن الأخرى : رزان ، و (رمع) (رماع) ، وهو متصل بوادي سهام ووادي مور ، مشتمل على عـدة قرى [6] ، وشرس ، و (ريمة) و (زبيد) . وتعرف هذه الأنهار بـ (وادي) في اصطلاح أهل اليمن [7] .

و (الدبل) الجدول من جداول الأنهار . وانما سميت الجداول دبولاً لأنها تدبل ، أي تصلح وتجهز وتنقى . ومنه الحديث انه غدا الى النطـاة ، وهي من حصون خيبر ، وقد دل على مشارب كانوا يسقون منهـا دبول . كانوا ينزلون اليها بالليل فيتروون من الماء ، فقطعها ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى أعطوا بأيديهم [8].

وتكرى الأنهار وموارد المياه الأخرى ، لاستخراج الطمي منها ولتعميقها حتى

---

١ تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مار) ، زيد بن علي عنان ، تاريخ اليمن القديم (ص ١٠) ، (المطبعة السلفية) ، (القاهرة) .
٢ تاج العروس (٢/٣٧٥) ، (سرد) .
٣ تاريخ اليمن القديم (١١) .
٤ تاريخ اليمن القديم (١١) .
٥ الصفة (١٠٥) .
٦ تاج العروس (٥/٣٦٢) ، (رمع) .
٧ الدكتور أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها (ص ٥) .
٨ تاج العروس (٧/٣١٧) ، (دبل) .

لا يسيل الماء على حافات مورد الماء[1] . وكانوا يكرونها بالمساحي، ويرمون الطمي على الجانبين .

وإذا جرى الماء على وجه الأرض قيل له (السيح) . وباليمامة ثلاثة أودية بأقصى العرض ، عرف كل واحد منها بسيح ، ونسب الى أهله أو مكانه[2] . وقد أشار (الهمداني) الى « السيح يجري تحت النخل والآبار »[3] ، وقصد به الماء الجوفي . وأشار الى (سيح الغمر)[4] والى سيح دعاه سيح ابن مربع ، ذكر أنه كان غزيراً ثم انقطع بضعف أهله[5] . وذكر اسم سيح آخر دعاه سيح قشير، ويسمى أيضاً بسيح اسحاق[6] .

الحسي :

وينتفع من الأحساء والرحاب في الزراعة، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتي قد تظهر على سطح الأرض وتسيل . والحسي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلظ فوقه رمل يجمع مـاء المطر . وفي جزيرة العرب أحساء كثيرة ، منها أحساء بني سعد بحذاء هجر بالبحرين ، وأحساء خرشاف ، بسيف البحرين ، وأحساء بني وهب ، على خمسة أميال من المرتمى فيه بركـة ، وتسعة آبار كبار وصغار بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج ، والأحساء ماء لغنى ، والأحساء ماء باليمامة ، وأيضاً ماءة لجديلة طيء بأجأ[7] . والأحساء التي على الخليج ، هي من أهم هذه الحسي في الوقت الحاضر. وهي وحدة ادارية في المملكة العربية السعودية ، بها عيون تفيض مـاءً ، تروي بساتين النخيل والأشجار الأخرى .

و (البئر) يشبه الأحساء ، يجري تحت الحصى على مقدار ذراع أو ذراعين

---

١ تاج العروس (٣١٢/١٠) ، (كرى) .
٢ تاج العروس (١٦٨/٢) ، (السيح) .
٣ الصفـة (١٥٩) .
٤ الصفـة ((١٥٠) .
٥ الصفـة (١٤٨) .
٦ الصفـة (١٦٠) .
٧ تاج العروس (٨٩/١٠) ، (حسى) .

ودون الذراع ، وربما أثارته الدواب بحوافرها[1] . والباثر من الماء البادي من غير حفر . والبئر أرض سهلة رخوة . وذكر بعض علماء اللغة ان البثور الأحساء وهي الكرار[2] . وذكر بعضهم ان (الكرار) البئر ، أو الحسي ، أو موضع يجمع فيه الماء الآجن[3] .

وقد تنبع العيون في مواضع رملية ، فلا تمكن الناس من الاستفادة من المـاء فائدة كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً ، تجري في رمل فلا تمكن الزرّاعين عليها إلا في مواضع يسيرة من أحناء الرمل ، فيها نخيل ، وتتخذ البقول والبطيخ ، وتسمى هذه العين (البحير)[4] .

وتكون تربة الرحبة خصبة ، ولهذا صارت مواطن صالحة للزراعة لو استنبطت مياهها التي في جوف الأرض القريبة من السطح ، لأفادت في توطين الأعراب . والرحبة في تعريف علماء اللغة « من الوادي مسيل مائـه من جانبيه فيه . جمعه رحاب . وهي مواضع متواطئة يستنقـع الماء فيها ، وهي أسرع الأرض نباتاً ، تكون عند منتهى الوادي وفي وسطه ، وقد تكون في المكان المشرف يستنقع فيها الماء وما حولها مشرف عليها ، ولا تكون الرحاب في الرمل ، وتكون في بطون الأرض وفي ظواهرها »[5]. والرحبة الأرض الواسعة المنبات. ومن الرحاب المشهورة: (الرحبة) حذاء القادسية ، وواد قرب صنعاء ، وناحية بين المدينة وبلاد الشأم قرب وادي القرى ، ورحبة باليمامة ، تعرف برحبة الهدّار ، وصحراء بها أيضاً فيها ماء وقرى[6] . وقد وجدت كتابات جاهلية في بعض هذه الرحاب ، تشير الى سكن أناس فيها ونزولهم هناك قبل الاسلام .

والنُقرة الوهدة المستديرة في الأرض ليست بكبيرة يستنقع فيها الماء[7] .

و (الحفر) الموضع فيه ركايا محفورة ، يستقى منها الماء . منها (حفر ضبّة)، وهي ركايا بناحية (الشواجن) بعيدة القعر عذبة المـاء[8] . والشواجن ، وادٍ

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠ ، ٤٢١) ، تاج العروس (٣/٢٥) ، (بثر) .
٢ تاج العروس (٣/٢٥) ، (بثر) .
٣ تاج العروس (٣/٥١٩) ، (كرّ) .
٤ عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٨) .
٥ تاج العروس (١/٢٦٨) ، (رحب) .
٦ تاج العروس (١/٢٦٨) ، (رحب) .
٧ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .
٨ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .

كبير بديار ضبة في بطنه أطواء كثيرة ، منها الصاف واللهابة وثبرة ، ومياهها عذبة[1] . ومنها (حفر سعد بن زيد مناة بن تميم) ، بحذاء (العرمة) وراء الدهناء يستقي منها بالسانية[2] .

و (القلت) النقرة في الجبل تمسك الماء ، وقيل كل نقرة في أرض يستنقع فيها الماء . وإذا سالت السيول ملأت القلات . وفي الحديث ذكر لقلات السيل[3]. ومثلها (الوقب) . وهي نقرة في الجبل أو في الصخر يجتمع فيها الماء كالوقبة، أو هي نحو البئر في الصفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها ماء السماء[4] .

الآبار :

وفي الأماكن التي تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض،ويكون من السهولة حفر الآبار فيها ، يحفر الناس آباراً في بيوتهم وفي أملاكهم للشرب والزرع إن كانت عذبة وللتنظيف والاستعمال . ويستعان بالخدم وبالسقائين في جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات . كما حفروا الآبار في الحصون . وقد كانت في حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء . وقد بني الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع في عرض ثلاثة أذرع ، وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج . وقد فتح في أيام الرسول[5] .

و (البئر) هي (بار) في كتابات المسند . والجمع (ابار) أي (آبار) . وقد وصلت الينا نصوص عديدة في حفر آبار أو في شرائها وبيعها ، وفي تعميرها وإصلاحها . وهي ثروة ورأس مال كبير في جزيرة العرب،تحيي الأرض وتميتها. وتفني الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا اذا حفروا بئراً أو اذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة ، يقدمون الى آلهتهم الشكر والحمد والنذور. وقد أقامت الآبار الكبيرة العميقة العذبة مدناً . وأماتت مدناً بسبب نضوب مياهها وجفافها ، وهي على هذه الأهمية الخطيرة الى الآن .

---

١ تاج العروس (٩/٢٥١) ، (شجن) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٢) ، (حفر) .
٣ تاج العروس (١/٥٧٢) ، (قلت) .
٤ تاج العروس (١/٥٠٥) ، (وقب) .
٥ ابن المجاور (١/٢١) .

وللأهمية المذكورة للآبار في حياة العرب ، كثرت في لغتهم المصطلحات الخاصة بها ، من أسماء لأنواع الآبار ومن مصطلحات للحفر ولوسائل الحفر ، ومن ألفاظ للمواد التي تستعمل في بناء البئر وفي استخراج الماء منها ، ومن كلمات تشير الى أبعاد البئر ، ومقدار ما فيها من ماء ، وأبعاد أفواهها . ومن أسماء البئر (الطوى) و (الطوية) ، اذا بنيت بالحجارة[1] . و (الجب) ، البئر ، وقيل البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر ، ولا تكون جباً حتى تكون مما وجد ، لا مما حفره الناس[2] . و (القليب) البئر ما كانت . وقيل : البئر قبل ان تطوى ، فإن طويت فهي الطوي ، أو العادية القديمة منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري[3]. وقد عرفت بـ (الرس) كذلك[4] .

ومن أنواع الآبار التي ذكرها علماء اللغة : الشبكة ، ويراد بالشبكة الآبار المتقاربة والأرض الكثيرة الآبار . وأما (الفُقُر) ، فهي ركايا تحفر ثم ينفذ بعضها الى بعض حتى يجتمع ماؤها في ركي . واذا اجتمعت ركايا ثلاث فما زاد الى ما بلغ من العدة قيل له (فقير) ، ولا يقال ذلك لأقل من ثلاث . وورد ان الفقير فم القناة ، والمكان السهل تحفر فيه ركايا متناسقة ، وفم القناة التي تجري تحت الارض ، ومخرج الماء منها[5] . وأما (الكظامة) ، فإنها بئر الى جنبها بئر بينهما مجرى في بطن الارض . وقيل : كل ما سددت من مجرى ماء أو باب أو طريق ، فهو كظم ، والذي يسدّ به الكظامة . وقيل : هي آبار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ، ثم يخرق ما بين كل نهرين بقناة تؤدي الماء من الأولى الى التي تليها تحت الأرض فتجتمع مياهها جارية ثم تخرج عند منتهاها فتسيح على وجه الأرض[6] .

و (الجفر) البئر التي ليست بمطوية ، وتجمع على جفار . وأما (الجدّ) ، فالبئر الجيدة الموضع من الكلأ ، والجمع أجداد ، والملك البئر ينفرد بها الرجل ،

---

١ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوي) .
٢ تاج العروس (١/١٧٢) ، (جبب) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٧ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ المخصص (١٠/٢٤) .
٥ تاج العروس (٣/٤٧٤) ، (فقر) .
٦ تاج العروس (٩/٤٧) ، (كظم) ، المخصص (١٠/٣٤ وما بعدها) .

والبود البئر كذلك[1] . والسهبرة من أسماء الركايا[2] . و (القليب) البئر ما كانت ، والبئر قبل ان تطوى ، فإذا طويت فهي (الطوي) ، أو العادية منها التي لا يعلم لها رب ولا حافر يكون في البراري[3] . و (الطوي) البئر المطوية بالحجارة[4] .

ومن المواضع التي عرفت بأطوائها موضع (الأطواء) باليمامة ، قرب (قر قرى) ، ذو نخل وزرع كثير[5] .

وقد تكون الآبار ذات مياه غزيرة كبيرة ، تخص المدينة بأسرها ، أو القبيلة بأسرها ، وقد تكون ملك أسرة تستغلها الأسرة لحسابها ، أو ملك فرد يستفيد منها مباشرة أو يبيع مياهها للناس،لاسقاء الأرضين أو الماشية . وقد تباع لأشخاص آخرين ، وقد تؤجر . وطالما كانت الآبار مصدر نزاع خطير بين القبائل وسبباً في إثارة الحروب .

و (العِدُّ) البئر لها مادة من الأرض ، فهي كثيرة الماء دوماً ولا تنزح . وأما (المفهاق) فإنها البئر الكثيرة الماء ، و (الغروب) الدلاء ، واحدها (غرب) وهي التي تجرها الإبل ، و (الاسجل) الواسع من الدلاء بمائها ، والغَلَل الماء الجاري يجري تحت النخيل،و (اليعبوب) النهر الجاري وتسلسله مضيه في جريته. و (الخسف) البئر ذات الماء الكثير[6] .

وقد اشتهرت بعض الآبار بغزارة مياهها ، ذكر (الهمداني) أن (بئر النقير) بناحية البحرين « على عشر قِبَم لا تنكش ، ويجتمع عليها كثير من وراد العرب وربما سقى عليها عشرة آلاف بعير »[7] . وهناك آبار أخرى عرفت بغزارة مياهها .

وقد يحفرون سلسلة آبار يخرق أسافلها ، ليفرغ بعضها في بعض من موضع الماء . مثل (الهباءة) . وكانوا يزرعون عليها الحنطة والشعير وما أشبه[8] .

---

١ تاج العروس (٢/٣٠٧) ، (البود) .
٢ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي (٨/٣٢٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٢٨٥) ، السهبرة) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٧ وما بعدها) ، (قلب) .
٤ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٥ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٦ العمدة (٩٤) .
٧ الصفة (١٦٣) .
٨ عرام ، أسماء جبال تهامة (٤٣٥) .

ولم يكن من السهل في ذلك الزمن حفر الآبار ، لعدم توفر الآلات والأدوات الفنية . فإن حفر البئر الى عمق بعيد الغور كما تتطلبه الأماكن المرتفعة يحتاج الى آلات كثيرة والى علم وتدبير وفن وذكاء في محافظة جدران البئر من الانهيار على الحفّارين ، وعلى الماء بعد الانتهاء من الحفر ، فتندثر ويذهب المجهود في حفرها عبثاً . هـذا ولا بد لمهندس الآبار من معرفة بطبيعة الأرض ومظنة وجود الماء فيها أو عدمه ومدى عمقه، فلا يعقل اقدام شخص على حفر بئر في أرض لا يعرف من أمرها شيئـاً . وحفر البئر في النجاد عمل مكلف باهظ ، فلا بد إذن من تخصص أناس بهندسة الآبار، ليقوموا بهذا العمل الذي لا يمكن القيام به ما لم يسنده علم وفهم .

وقد تخصص أناس بحفر الآبار وباختيار المواضع التي يحتمل وجود المياه العذبة بها . ولهم في ذلك علم ودراية وخبرة . وكانوا إذا قربوا من الماء احتفروا بئراً صغيرة في وسط البئر بقدر ما يجدون طعم الماء ، فإن كان عذباً حفروا بقيتها، ولذلك يقال (التعاقب) و (الاعتقام)[1] . فالاعتقام إذن عملية تجريبية لاختبار طعم ماء البئر وتجربته من حيث العذوبة والملوحة وعليها تتوقف عملية الحفر .

ومتى حفرت البئر ووصل الى الماء ، قيل : أمهت البئر ، وأموهت، وأمهيت. ويقال ابتأرت بئراً ، أي حفرتها . ويقال أيضاً : حفـرت البئر حتى نهرت ، أي بلغت الماء . واذا بلغ الحفارون الأرض الغليظة قيل : بلغت الكدية . واذا وصلوا موضعاً صعباً فصعب الحفر ، قيل : بلغ مسكة البئر . ويقال أجبلت ، أي انتهيت الى جبل . ويقال الصلود ، وهي الارض التي تحفـر فيغلب جبلها الحافر . فيصلد الحفر على الحافر لصعوبة الأرض . واذا حفر الحفارون حتى يبلغوا الطين ، فيقال عندئذ : أثلجت ، فإذا بلغ الماء ، قيل : أنبط ونبط . والنبط أول ما يظهر من ماء البئر حين تحفر . وإن بلغ الرمل ، قيل : أسهب ، وإن انتهى الى سبخة ، قيل : أسبخت . ويقال : تأثل البئر اذا حفرت البئر، وهزمت البئر حفرتها[2] .

ويتحايل الحفارون في الحفر اذا فوجئوا بصخرة أو أرض صلدة ، تمنعهم من

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٣) ، المخصص (١٠/٤١) .
٢ المخصص (١٠/٤٠ وما بعدها) .

الاستمرار في الحفر . خاصة اذا كانوا قد بلغوا عمقاً بعيداً في باطن الارض . وقد كلفهم الحفر صرف مال كثير ، فإذا تركوه أصيب صاحب البئر بخسارة ، لذلك يتحايل الحفارون على الأرض بالتعريج في الحفر ، بمنة ويسرة ، للعثور على موضع ينزلون منه الى موضع وجود الماء ، ويقولون لذلك : (التلجيف) . ويراد به الحفر في جوانب البئر[1] .

وقد تنقر آبار صغيرة ضيقة الرؤوس في نجفة صلبة ، لئلا تهشم ، ويقال لمثل هذه الآبار المناقر . وأما المنقر ، فيراد بها البئر التي يكثر فيها الماء[2] . وفي بعض المناطق الصخرية والجبليـــة آبار منقورة تتجمع فيها مياه جوفية تنحدر اليهـــا من المواضع المرتفعة أو من مياه الامطار التي تتساقط على المواضع المرتفعة فتسيل الى أفواه تلك الآبار وتدخل اليها وتتجمع فيها ، فيستفيد منها الناس .

وفي جملة الألفاظ الواردة في الكتابات العربية الجنوبية والمستعملة في حفر الآبار وتوسيعها وتعميقها ، لفظة (حفر) ، وهي بالمعنى المفهوم منهـــا في عربيتنا . ولفظة (سنبط) ، ويقصد بها معنى (استنبط) ، من (نبط) ويراد بهـــا ظهور الماء واستخراجه من باطن الارض . وأما لفظة (سبحر)، فتعني (استبحر)، من أصـــل بحر ، بمعنى التعميق . ولا يزال حَفَرَةُ الآبار في العراق يستعملون لفظة تبحير البئر بمعنى تعميقهـــا[3] . وفسرت لفظة (ضفر) ، بمعنى الـــدعم بالحجارة ، أي كسوة جدار البئر بالحجارة[4] .

وللمحافظة على البئر من الانهيار بسبب رخاوة جدرانها وتساقط المياه الممتوحة منها ، عمدوا الى زبرها من قعرها الى أعلاها بالحجارة . ويعبر عن هذا الجدار بلفظة (كولم) (كول) في المـند . وبـ (جول) في عربيتنا . ورد في كتب اللغة : « الجول : جدار البئر »[5] . ويقال لمثل هذه البئر (المزبورة) أي المطوية

---

١ تاج العروس (٦/٢٤٣) ، (لجف) ، المخصص (١٠/٤١) .

٢ المخصص (١٠/٤٦) ، تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نقر) .

٣ « يوم حفر وسنبط وسبحر » ، بمعنى « يوم حفر واستنبط وعمق » ، أو « حـين حفر واستنبط وعمق » ، النقش رقم ١٦ المنشور في (ص ٢٣) من كتاب « نقوش خربة معين » .

٤ نقوش خربة معين (ص ٢٣) .

٥ تاج العروس (٧/٢٦٧) . Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 28.

بالزبر . وأما (المعروشة) ، فالتي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة ، ثم يطوى سائرها بالخشب وحـــده ، وذلك الخشب هو العرش . فإن كانت كلها بالحجارة ، فهي مطوية ، وليست معروشة . وهناك تعابير أخرى تشير الى تبطين البئر وكساء جدرانها بمواد مقوية تمنعها ان تنهار . فإذا بنيت البئر بالحجـارة ، قيل بئر مضروسة وضريس ، وهو ان يسدّ ما بين خصاص طيّها بحجر ، وكذلك سائر البناء . ويقال الأعقاب للخزف الذي يُدخّل بين الآجر في الطي لكي يشتد. والوَسْب خشب يُطوى به أسفل البئر اذا خافوا ان تنهال ، والجمع الوسوب[1] . والحامية الحجارة تطوى بها البئر[2] .

وهناك ألفاظ عديدة ذكرها علماء اللغة للآبار التي تكثر مياهها أو تقل . فورد : بئر غزيرة بمعنى كثيرة الماء ، وورد بئر ميهة وماهة إذا كثر ماؤها ، والعيلم البئر الكثيرة الماء . والخَسيف التي تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كـــثرة ، وهي التي خسفت الى المـــاء الواتن تحت الارض ، ويقال بئر سجر ومسجورة بمعنى مملوءة ، وبئر ذات غيث أي مادة . والقيلذم ، البئر الكثيرة الماء ، وبئر مقيضة كثيرة الماء قد قيضت عن الجبل . والبئر الماكدة التي يثبت ماؤها على قرن واحد لا يتغير ، وإن كثر منها ، وان وضع عليهـــا قرنان أو أكثر ، غير أن ذلك إنما يكون على قدر ما يوضع عليها من القرون بقدر مائها ، وبئر مكود وماكدة لا تنقطع مادتها ، والهزائم الآبار الكثيرة الماء ، وبئر زغربة كثيرة الماء ، وبئر ذمة وذميم وذميمة كثيرة الماء كذلك ، والنقيع البئر الكثيرة الماء[3] .

ويقال حبض ماء البئر ، وذلك إذا انحدر ونقص ، ونكزت البئر أي قـــلّ ماؤها ، وبئر نزح ماء فيها ، وبئر مكول وهي التي يقلّ ماؤهـا فيستجم حتى يجتمع الماء في أسفلها ، واسم ذلك الماء المكْلَةُ ، وبئر قطعة وبئر ذمة قليلة الماء ، وبئر ضهول قليلة الماء ، والخليقة البئر التي لا ماء فيها ، وقيل هي الحفيرة في الارض المخلوقة ، والضّغيط بئر تحفر الى جنبها بئر أخرى فيقلّ ماؤها ، وبئر قَرُوع قليلة الماء وهي كالضنون سميت بذلك لانها تقرع قرعاً كلما فني ماؤها ،

---

١ تاج العروس (١/٥٠٣) ، (وسب) .
٢ المخصص (١٠/٤٢ وما بعدها) .
٣ المخصص (١٠/٢٧ وما بعدها) .

وبئر رشوح وبروض وبضوض قليلة الماء[1] .

وتستخرج المياه من الآبار بالدلاء ، تربط بالحبال الى الأعمدة المثبتة فوق البئر. ويقال للعمود (عمد) (عامود) والجمع (عُمُد) و (أعمد)[2] . وأما (الدلو) وهو الوعاء أو القربة المصنوعة من الجلد في الغالب ، فيقال له (علبت) و (علبم) في المسند[3] ، تمتلىء بالماء حين دخولها في ماء البئر ، فتسحب وهي مملوءة بـه . فإذا بلغت موضع سكب الماء سحبت الى ذلك المكان لتفريغ مائها فيه ، فينساب الى (مسقيت) أي (مسقية) ، بمعنى الساقية لإرواء المزرعة ، أو لايصاله الى المدينة أو البيوت .

وأما الآلة التي تعلق عليها الدلاء والمتصلة بالأعمـــدة فتعرف بـ (اعرز) في المسند[4] . ويقال للدولاب الذي يستقى عليه : المنجنون ، وذلك في عربيتنا[5] .

ويقال لتفريغ الركية وأخذ ما فيها من ماء (حبض) في لغة المسند . وهي بهذا المعنى أيضاً في عربية القـرآن الكريم . والاحباض ان يذهب ماء الركية فلا يعود ، و (أحبض الركية) احباضاً ، فلم يترك فيها ماء[6] .

ولا بد للدلاء من حبال قوية متينة تتحمل الاحتكاك بينها وبين البكرة وتساعدها في حمل الدلو . وهذه الحبال تتخذ من مواد مختلفة ، تفتل وتبرم ، والعادة ان يقوى الحبل بجملة حبال تبرم بعضها فوق بعض وتشد شداً قوياً لئلا تتهرأ بسرعة فينقطع . وقد يتكون الحبل الواحد من مجموع عشرة حبـال . أما مادة الحبـــل فالليف والخوص والجلود ولا سيما جلود الإبل والابق والمصاص ، وهو نبات ، ولحاء الشجر والقنب ، ومشاقة (السلْب) ، وهو ضرب من الشجر ينبت متسلقاً فيطول . ويؤخذ فيحل ثم يشقق فتخرج منه مشاقة بيضاء كالليف يتخذ منها أجود ما يكون من الحبال . وقد تصنع من القطن ومن ليف جوز الهند[7] .

---

١ المخصص (١٠/٣٩ وما بعدها) .
٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 115, 152.
٣ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 132.
٤ CIH 303, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 131.
٥ تاج العروس (٩/١٦٦) ، (جنن) .
٦ تاج العروس (٥/١٨) ، (حبض) .
٧ المخصص (٩/١٧٠ وما بعدها) .

ولفتل الحبال تستعمل المغـــازل والمبارم ، لغزل الالياف وبرمها بعضها فوق بعض ، كما تستعمل بعض المواد المقوية للألياف مثل الزيوت لتحافظ عـــلى قوة الحبل وعلى تماسكه فتبقيه طرياً، فلا ينقطع بسهولة . وقد تخصص أشخاص بصناعة الحبال وعاشوا عليها ، وقد كانت ذات أهمية بالنسبة لذلك الزمن .

ويقال للدلو العظيمة : (الغرب) . ويتخذ من مسك ثور ، والغرب الراوية[1]. و (السانية) الغرب وأداته ، والناقة إذا سقت الارض ، وسنيت الدابة ، إذا استقى عليها ، والقوم يسنون لانفسهم إذا استقوا[2] . والسنايـة والسناوة السقي ، وهو سان . والساني ، يقع على الرجل والجمل والبقر ، كما أن السانية على الجمل والناقة . والمسنوية ، البئر التي يسنى منها ، وركية مسنوية ، إذا كانت بعيـــدة الرشاء لا يستقى منها إلا بالسانية من الإبل[3] .

وتستخدم الثيران والجمال والحمير والبغال في مَتْح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقي المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيـد أو الفلاحون أو أصحاب البئر . أما الآبار الصغيرة الخاصة بشرب الناس ، فيستخرج الماء منها الإنسان ، وتصب الدلاء المياه في أحواض أعدت لذلك ، لها منفذ يسيل منه الماء الى السواقي .

وقد تحمى البئر من الأدران ومن الأتربة ومن أخذ الماء منها ، بإقامة بنـــاء فوقها على هيأة غرفة ، فإذا أقيم ذلك على البئر عرف بـ (منشا) في المسند . وقد تؤدي هذه اللفظة معنى أخذ الماء وتوجيهه الى الجهة المراد ارسال الماء اليها بمجرى يأخذ ماءه من (فنوت)[4] . وفسرت لفظة (ثقول) بمعنى تعليق . وتعليق شيء فوق بئر ، أو انشاء سقف فوقها لحماية البئر ولتعليق الأدوات التي يمتح بها الماء من البئر عليهـــا ، وذلك كما في هـــذه الجملة : (ابارسم وثقولسم) ، ومعناها : (وكل آبارهم وسقوفها) أو (وكل آبارهم والأعمدة المقامـة فوقها للاستقاء بها)[5] .

---

١ تاج العروس (١/٤٠٥) ، (غرب) ، الخراج (٩٦) ، المبرد ، الكامل (٢/٧٣٢) .
٢ تاج العروس (١٠/١٨٥) ، (سنى) .
٣ تاج العروس (١٠/١٨٦) ، (سنى) .
٤ Rhodokanakis, Stud. Lexl., I, S. 113.
٥ Kat. Texte, II, S. 28.

وتتعرض الآبار لسقوط الأتربة والرمال فيها ، وقد تنهـار جدرانها فينضب ماؤها ، ولا تمكن الاستفادة منها إلا بنزحها . ويقـال لنزح البئر جهرت البئر واجتهرت ، أي نزحت . وقيل المجهورة المعمورة منها عذبة كانت أو ملحة[1] . ولا بد من نزح هذه الآبار دائماً ، اذا أريد بقاء الماء فيها ، وإلا ذهب ماؤها وانتفت فائدتها ، فتترك وتهمل .

وتنظف الآبار بنزول الرجال فيها فيشد الرجل وسطه بالحبل ، ويترك طرفه في يد رجل ، أو مشدوداً بشيء ثابت قوي . ويقال لهذا الحبل (الجعار)[2] . وذكر ان (الجعار) حبل يشد به المستقي وسطه اذا نزل في البئر لئلا يقع فيها ، وطرفه في يد رجل ، فإن سقط مدّه به . وقيل هو حبل يشده الساقي الى وتد ثم يشده في حقوه[3] . وتعمل في جدر الآبار في العادة مواضع للأقـدام متقابلة يضع النازل في البئر رجليه عليها ، تمكنه من النزول لمنح البئر ، واستخراج ما قـد يتساقط فيها من أتربة ورمال ، أو لحفر قاعها لزيادة الماء فيها .

ويعبر عن انهيار البئر وسقوطها بألفاظ ، مثل : (صقعت) ، وانقاصت ، وانقاضت ، وانهارت ، وتنقضت ، وتجوخت ، وانقارت . والهدم ما تهدم من نواحي البئر في جوفها ، وانخسفت البئر ، تهدمت[4] .

وتنظف الآبار بالجُبْجبة ، تملأ بالأتربة وبالطين وبالأوساخ المتراكمة في قاع البئر وترفع ، وتصنع من جلود وأدم ، وهي نوع من الزبيل . ويستعمـل في التنظيف (الثوج) كذلك ، وهو زبيل ، يعمل من خوص ، يحمل فيـه التراب وغير ذلك . ويستعمل القفير كذلك ، وهو الزبيل بلغة أهل اليمن . ومن أسماء الزبيل أيضاً (الصن) وهو زبيل كبير ، والحفص زبيل صغير من أدم ، والعرق نوع من أنواع الزبيل . ويقال للخشبتين اللتين تدخلان في عروتي الزبيل اذا أخرج به التراب من البئر (المِسْمعان). وقيل المسمع العروة التي تكون في وسط المزادة[5].

---

١ المخصص (١٠/٣٩ وما بعدها) .
٢ المخصص (٩/١٧١) .
٣ قال أحدهم :
ليس الجعار مانعـي من القـدر ولـو تجعـرت بمحبـوك ممر
تاج العروس (٣/١٠٢) ، (جعر) .
٤ المخصص (١٠/٤٤) .
٥ المخصص (١٠/٤٥ وما بعدها) .

وتسحب الزبيل بحبال أعلى لاستخلاص ما فيها من تراب وطين ووسخ حتى تنظف.

ومن الالفاظ المعبرة عن تنقية البئر ونزولها وتنظيفها من الاوساخ والاتربة قولهم: نُشِلَتْ البئر ، أي أخرج ترابها ، واسم ذلك التراب النثيلة والنثالة والثلة والنبيثة. ويقال نبيثة النهر كذلك . وأما خمامة البئر ، فيراد بها ما كنس منهـا . ويقال جَهَرْتُ البئر ، بمعنى أخرجت ما فيها من الحمأة . وأما الشأو ، فما يخرج من ترابها ، وقد شأوت البئر نقيتها ، ويقال للذي يُخرج به المشآة ، ويقال أخرجت من البئر شأواً أو شأوين ، وهو ملء الزبيل من التراب . وجششت البئر أجشها جشاً ، أي كنستها . ونكشتُ البئر ،أخرجت ما فيها من الحمأة والجيثة والطين[1].

وقد يتغير طعم مياه الآبار وألوانها لعوامل عديدة . وهناك مصطلحات عديدة ذكرها علماء اللغة للدلالة على فساد ماء البئر ونتنـه . مثل : المسيط والضّغيط ، والحمأة الطين الاسود المنتن ، وقد يحمىء ماء البئر فيكدر وتخالطـه الحمأة فتتغير رائحته . وتنزع حمأة الآبار وتنظف ليمكن الاستفادة منها[2] . والجيثـة والجيأة : البئر المنتنة[3] .

وقد كان أهل المدن والقرى يشربون من العيون ومن موارد المياه الطبيعيـة الاخرى إن كانت في قراهم عندها أو على مقربة منها ، كما كانوا يحتفرون الآبار في بيوتهم أو في خارجها للاستفـادة من مياهها ، فإن كانت عذبة فرحوا بهـا وشربوا منها . وكانت قريش قبل جمع قصيّ إياها وقبل دخولها مكة تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ، ومن بئر حفرها (لؤي بن غالب) خارج الحرم تدعى (اليسيرة) ، ومن بئر حفرها (مرة بن كعب) تدعى (الروي)، وهي ما يلي (عوفة) ثم حفر (كلاب بن مرة) خم ورم ، و(الجفر) بظاهر مكة[4] ، وورد أن الذي حفر بئر (خم) هو (عبد شمس بن عبد مناف) ، حفرها بمكة[5] . وأن الذي حفر بئر (رم) هو (مرة بن كعب) أو (كلاب ابن مرة) حفرها بمكة[6] . وذكر أن (الجفر) بئر بمكة كانت لبني تميم بن

---

١ المخصص (١٠/٤٥) ، تاج العروس (٤/٣٥٩) ، (نكش) .
٢ تاج العروس (١/٥٨) ، (حمىء) .
٣ المخصص (١٠/٤٧) .
٤ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٥ تاج العروس (٨/٢٨٣) ، (خم) .
٦ تاج العروس (٨/٣١٨) ، (رمم) .

مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي[1] .

ثم إن (قصي بن كلاب) حفر بئراً سماها (العجول) واتخذ سقاية ، ثم إنه سقط في العجول بعد ممات (قصي) رجل فعطلت[2] . وورد أن الذي احتفرها (قصي) أو (عبد شمس)[3] . وحفر (هاشم بن عبد مناف) (بذر)،وهي البئر التي عند حطم الخندمة على فم شعب أبي طالب ، وهي لبني عبد الدار[4]. وحفر (هاشم) أيضاً (سجلة) ، وقد دخلت في المسجد[5] . وحفر (عبد شمس ابن عبد مناف) (الطوى) وهي بأعلى مكة ، و (الجفر) ، وحفر (ميمون ابن الحضرمي) (بئرة) ، وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية بمكة . وعندها قبر (المنصور) . وورد أن (عبد شمس) حفر أيضاً بئرين وسماهما (خم) و (رم) ، على ما سمى (كلاب بن مرة) بئريه[6] . فأما (خم) فهي عند (الردم) . وأما (رم) ، فعند دار (خديجة بنت خويلد)[7] .

وحفرت بنو أسد بئر (شُفَيّة)[8] . وحفر (بنو عبد الدار) (أم أحراد)، وقد أشير اليها في الحديث[9] . وحفر (بنو جمح) (السنبلة) . وذكر ان الذي حفرها (بنو جمح) و (بنو عامر)[10] . وحفر (بنو سهم) (الغمر) ، وهي بئر (العاص بن وائل) . وحفرت (بنو عدي) (الحفير) . وحفرت (بنو مخزوم) (السقيا) ، و (بنو تيم) (الثريا) ، وهي بئر (عبدالله بن جدعان) . وحفرت (بنو عامر بن لؤي) (النقيع) ، وكانت لجبير بن مطعم بئر ، وهي بئر بني نوفل ، وكان عقيل بن أبي طالب ، حفر في الجاهلية بئراً،

---

١ تاج العروس (٣/١٠٥) ، (جفر) .
٢ البلاذري ، فتوح (٦٠) .
٣ تاج العروس (٨/٨) ، (عجل) .
٤ تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) ، البلاذري ، فتوح (٦١) .
٥ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٦ البلاذري ، فتوح (٦١) .
٧ وقال عبد شمس :
حفرت خمـــا وحفـرت دمـــا حتى أرى المجـد لنا قـد تمـــا
البلاذري ، فتوح (٦١) .
٨ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (١٠/٢٠١) ، (شفى) .
٩ البلاذري ، فتوح (٦١) ، تاج العروس (٢/٣٣٥) ، (حرد) .
١٠ البلاذري ، فتوح (٦٢) ، تاج العروس (٧/٣٨٣) ، (سنبل) .

وهناك آبار أخرى غيرها ، ذكرها (البلاذري) في كتابه (فتوح البلدان)[1] .

وقد اشتهرت بعض الآبار وعرفت ، ، ولا تـزال معروفة نقـراً أسماءها في الكتب . ومن أشهرها (بئر زمزم) ، ذات الشهرة البعيدة ، بسبب مكانتها من الكعبـة ، وبئر (طوى) . وهي بئر حفرها عبد شمس بن مناف[2] . وبئر (ذروان) ، وهي لبني زريق ، جاء ذكرها في حديث سحر النبي[3] . و (بئر رومة) ، وهي ليهودي كان يبيع الماء منها للناس ، وقد حصل على مال كثير منها ، وكان اذا غاب ، قفل عليها بقفل ، فلا يستطيع أحد أخـذ الماء منها . فشكا المسلمون ذلك الى الرسول ، فقـال : « ومن يشتريهـا ويمنحها للمسلمين ويكون نصيبه كنصيب أحدهم ، فله الجنة » . فاشتراها (عثمان) بخمسة وثلاثين ألف درهم ، فوقفها[4] .

وبيثرب وأطرافها آبار عديدة ، كان يستقي منها أهلهـا للشرب ، منها بئر (غرس) . ويظهر انها كانت من أجود وأحسن آبار يثرب . وقد ورد ذكرها في الحديث ، حيث ورد : نعم البئر بئر غرس ، هي من عيون الجنـة . وغُسّل رسول الله منها[5] . وذكر انها كانت بقباء ، وانه برك فيها[6]. ويستقى منها على حمار[7] . ومنها بئر (مالك بن النضر بن ضمضم) ، وهي التي يقال لهـا بئر (أبـي أنس)[8] . ولمـا نزل الرسول منزل (أبـي أيوب) ، كان أبو أيوب يخدمه ويستعذب له هذه البئر[9] . ولما صار الرسول الى منزله ، كان خدمه يحملون قدور الماء الى بيوت نسائه من بئر السقيا ، ومن بئر غرس[10] .

وبئر (بضاعـة) بئر معروفة بالمدينة ، قطر رأسها ستة أذرع ، وهي في بستان ، وكان أهل يثرب يطرحون فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والمنتن[11] .

---

١ (من ص ٢٦ فما بعدها) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٢٩) ، (طوى) .
٣ تاج العروس (١٠/١٢٦) ، (ذرو) .
٤ المعارف (ص ٨٣) .
٥ تاج العروس (٤/٢٠١) ، (غرس) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١٠ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤) .
١١ تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .

وكان أهل العربية الغربية يحفرون حفراً ، يجعلونها كالبئر ، يلقون بها الجيف وما شاكلها . وذكر أن (الجباجب) ، حفر بمنى كان يلقى بها الكروش ، كروش الأضاحي في أيام الحج ، أو كان يجمع فيها دم البدن والهدايا ، والعرب تعظمها وتفخر بها[1] . وقد ورد أن الرسول كان يشرب من بئر (بضاعة) وأنه بصق فيها وبرك[2] . وأن خيل رسول الله كانت تسقى منها ، وأن أهل المدينة كانوا يغسلون مرضاهم بمائهـا ، لاعتقادهم أنه يشفي من المرض[3] . ولعل قصة رمي الجيف والمنتن بها من القصص الموضوع المصنوع ، أو أن ذلك حدث فيما بعد ، حين أهمل شأنها، فلم يعد الناس يستقون منها ، فاتخذت موضعاً يرمى فيه الجيف .

ومن بقية الآبار (البُقْع) وقيـل هي السقيا التي بنقب بني دينار ، وبئر (جنب) ، وبئر (جاسم)، بئر أبـي الهيثم بن التيهان براتج[4] ، وبئر (العبيرة)، بئر (بني أمية بن زيد) ، وقد شرب منها الرسول وسماها (اليسيرة)[5] . وبئر (رومة) بالعقيق ، وكانت لرجل من مزينة يسقى عليها بأجر ، فقـال رسول الله : نعْمَ صدقة المسلم هذه من رجل يبتاعها من المزني فيتصدق بها[6] . وكان المزني ، قد ضرب خيمة الى جنب البئر ، يأخذ أجور الدلاء ، وله جرار بهـا ماء بارد ، مرّ الرسول به مرة فشرب منها ماءً بارداً ، فقال : هـذا العذب الزلال[7] .

ويرد في كتب السير مصطلح (بئر السقيا) و (بيوت السقيا) ، و (السقيا) ورد أن الرسول كان يشرب من بيوت السقيا[8] ، وورد أن خدمه كانوا يحملون قدور الماء الى نسائه من (بئر السقيا) ، وأنه شرب حين خرج الى (بـدر) من (بئر السقيا)[9] . وقد ذكر بعض العلماء ، أن (بيوت السقيا) موضع في

---

١ تاج العروس (١/١٧٤) ، (جبب) .
٢ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٥) .
٤ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٥ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣ وما بعدها) .
٦ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٦) .
٧ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٦) .
٨ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣) .
٩ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٤ ، ٥٠٦) .

بلاد (عذرة) ، يقال له (سقيا الجزل) ، قريب من وادي القرى[1] . وهناك بئر قيل لها (السقيا) بنقب بني ديار ، ورد ذكرها في الحديث[2] . وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (السقيا) ، و (سقيا) ، منها سُقيا غفار ، و (السقيا الجزل) ، (سقيا يزيد) ، والسقيا للعنبر[3] .

وقد ذكر ان الرسول قد شرب من الآبار المذكورة ، وبصق فيها وبرك[4] ، ليبارك في مائها .

ولأبي عبيدة ، معمر بن المثنى كتاب في الآبار ، جمع فيه ما ورد ذكره من الآبار[5] .

وقد اتخذ النبط وغيرهم من القبائل آباراً لشربهم ولشرب مواشيهم، لها فتحات تسدّ بالحجارة ، فلا يمكن لأحد غريب الوقوف عليها ، فإذا داهمهم عدو ، أو أرادوا النقلة الى أماكن أخرى ، سدوا بها فتحاتها ، ووضعوا فوقها من التراب ما يخفي معالمها . وقد أشار اليها الكتبة اليونان واللاتين .

ولا تزال بعض الآبار القديمة مستعملة ينتفع بمائها وهناك آبار طمرت ، أو جفت مياهها ، وقد عثر عند أفواهها على كتابات تشير اليها والى أسماء أصحابها. وهناك آبار أخرى عديدة عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب، وبعضها عميقة جداً ، وهي كلها (عادية) من أيام الجاهلية . والبئر العادية البئر القديمة التي لا يعرف لها مالك .

وقد استغلت بعض الآبار الجاهلية المندثرة ، بتنظيفها وتطهيرها واستغلالها . ذكر (فؤاد حمزة) ان آباراً عديدة جاهلية نظفت وأصلحت ، فعادت اليها الحياة، واستغلت مياهها في إحياء الأرضين التي كانت خصبة مثمرة ثم تحولت الى موات[6]. ولا يزال الناس يستغلون في اليمن وفي غير اليمن بعض الآبار القديمة للشرب ، وذلك لصعوبة استخراج مياهها للزراعة لعمقها ، واقتصار الناس هناك في استخراج

---

١ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .
٢ تاج العروس (٥/٢٨٠) ، (بقع) .
٣ بلاد العرب (٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٩٦) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٥٠٣ وما بعدها) .
٥ « كتاب الآبار » تاج العروس (٣/٣٦) ، (بذر) .
٦ فؤاد حمزة (ص ١٩٠) .

الماء على الدلاء[1] . ويظهر من وجود بعض الآبار (العادية) في البراري ان تلك المواضع كانت في محلات مأهولة ، ثم تركها أهلها فعميت،وبقيت آثارها تتحدث عن وجود سكن قديم في هذه المواضع . وفي اليمامة آبار عديدة عادية ، لا تزال على وضعها ، وهي من آبار ما قبل الاسلام . وأشار العلماء الى مياه عادية ، فقد ذكروا ان (لبينة) ماءة عادية ، أي من المياه القديمة التي يعود عهدها الى الجاهلية[2] .

وقد عثر المنقبون على نصوص جاهلية مدوّنة بالمسند ، تتعلق بتملك الآبار وبحفرها وبإصلاحها . وقد أرخ بعض منها بأيام ملك ، أو برجل عظيم كان معروفاً مشهوراً في زمانه،أو بحادث وقع لهم ذي بال . وقد أمدتنا هذه النصوص ببعض المعلومات عن الآبار وعن أصحابها وأسماء المواضع التي حفرت بها .

ويكون نضوب الماء من البئر ، أو تحول مائها العذب الى ماء ملح ، نكبة بالنسبة لأهل البئر ، ففي تبدل طعم الماء هذا خسارة كبيرة لأهل الماء ، وعليهم البحث عن مورد آخر لسدّ رمقهم ، واطفاء ظمأ أنعامهم ، وحفر بئر أخرى في مكان آخر . ونقرأ في كتب أهل الأخبار واللغة أمثلة كثيرة عن هذا التبدل الذي حدث في طعم الماء ، وسببه ، هو انحباس المطر ، وتحول مجاري المياه العذبة الجوفية من مكان الى مكان ، مما يسبب نضوب ماء الآبار والعيون التي كانت على المجاري القديمة ، أو تقليل كمياته ، فتظهر عندئذ ملوحة التربة ، وقد تتغلب على طعم الماء العذب ، فتحوله الى ماء ملح[3] .

وقد هجرت مستوطنات عديدة بسبب وقوع هذه الظواهر المحزنة في موارد مياهها كانت تستمد مياهها من حوض ماء جوفي ، فلما قلت المياه فيها ، أو تحولت الى موضع آخر ، لعوامل (جيولوجية) ، تأثرت المنطقة التي فيها الماء، بهذا التحول ، واضطر سكانها إلى تركها ، نتيجة انقطاع موارد المياه عنها ، أو تبدل طعمها ، تبدلاً لا يطاق .

---

١ نزيه مؤيد العظم ، رحلة في بلاد العرب السعيدة (ص ٤٥) .

٢ بلاد العرب (٢١١) .

٣ تاج العروس (٢/٢٢٨ وما بعدها) ، (ملح) .

العيون :

ويقال لينبوع الماء (العين) . وعيون الماء معروفة مشهورة في مواضع كثيرة من جزيرة العرب ، وهي مواضع الخصب والنماء والزرع . ويستفاد منها في سقي المزارع وإرواء الأشجـــار المغروزة في هذه الأماكن ، على أن كثرة مياه بعض العيون قد صار سبباً في انتشار الأوبئة مثل (الملاريا) كما في واحـة خيبر ذات العيون العديدة . ويقال لمجاري الماء من العيون القصّب ، وقيل قصبة كل مخرج ماء . ويقال للعين التي لا ينقطع ماؤها عين حشد . أما إذا كانت العـين كثيرة الماء فيقال لها عين غزيرة ، وعين زغربة ، وعين غدقة ، وعين ثرة ، وكذلك ثرثارة[1] . وقد ذكر العلماء أسماء عيون عديدة كانت ذات مياه عذبة ، هي رحمة للناس تنقذ حياتهم وحياة ماشيتهم من العطش والحرّ الشديد ، وقد أقيمت حولها قرى ، مثل (ينبع) ، قرية وحصن ، ذكر أنها كانت ذات عيون كثيرة ، زرعت عليها نخيل وزروع[2] .

وبعض العيون عيون معدنية ، بعضها بارد ، وبعضها حار يستشفى فيه. ويقال للعين الحارة : الحمّة[3] . وذكر علماء اللغة ان الحمة كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى بالغسل منه . وقد أشير اليها في الحديث[4] . وكان أهل الجاهلية يستشفون بالاغتسال في العيون الحارة ، وخاصة عند اصابتهم بأمراض الجلد .

والعيون : هي مما استنبطته الطبيعة في الغالب ، فلا يد للانسان في وجودها ، وهي تكون عامة لأهل المنطقة التي تقع فيها ، يشربون منها سواء ، وقد تكون مما استنبطه الآدميون ، فتكون ملكاً لمستنبطها ولورثته من بعده ، لهم تملكها ولهم حق بيعها ، تسقي ملكهم لا ينازعهم عليها منازع ، واذا سال مـاء العين فيعبر عن ذلك بلفظة (ثج) ، أي سال[5] .

ونقرأ في كتب الأخبار واللغة لفظة (الغمر) علماً لمواضع فيها مياه غزيرة ، قد تكون آباراً وقد تكون عيوناً . ومنها (الغمـــر) ، بئر قديمة بمكة حفرها

---

١ المخصص (١٠/٣٣) .
٢ تاج العروس (٥/٥١٧) ، (نبع) .
٣ المخصص (١٠/٣٣) .
٤ تاج العروس (٨/٢٦٠) ، (حمم) .
٥ تاج العروس (٢/١٣) ، (ثجّ) .

بنو سهم ، و (غمر ذي كندة) بينه وبين مكة يومان ، و (الغمر) باليمامة، موضع ماء[1] . وأما لفظة (الركايا) ، فتعني الآبار[2] .

الكراف :

وترد لفظة (كرفن) ، أي (الكرف) و (الكريف) ، في النصوص المتعلقة بالإرواء والإسقاء والزراعة . وقد فسرها بعض العلماء بـ (صهريج) . وفسر (الهمداني) لفظة (كريف) بقوله : « كريف جوبة عظيمة في صفا يكون فيها الماء السنة وأكثر »[3] . والكرف صهاريج ، نقرت في الصخر ، ومنها كريف (درداع) ، وهو كريف (وحاظة) واسمها (سباع) ، ذكر ان مساحته (٦٠٠) ذراع في مثلها ، وكريف (الوفيت) ، منقور في الصخر الأسود، عمقه في الأرض خمسون ذراعاً ، وعرضه عشرون ، وطوله خمسون . محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه[4] .

ويقال للموضع الذي يجتمع فيه ماء كثير ،أو للماء الجاري الدائم الذي له مادة لا تنقطع كماء العين والبئر (العِدّ) . وقد وردت اللفظة في كتب الحديث . وقد نهى الرسول عن اقطاع (الأعداد)[5] . وقد ذكر علماء اللغة ان من معاني العِدّ : الماء القديم الذي لا ينتزح ، وانه الماء الكثير بلغة تميم، والماء القليل بلغة بكر بن وائل ، والركيّ في لهجة بني كلاب . ومن الماء العدّ : كاظمة ، جاهلي اسلامي ، لم ينزح قط . وفي الحديث نزلوا أعداد مياه الحديبية ، أي ذوات المادة كالعيون والآبار[6] .

القنى :

والقناة كظيمة تحفر في الأرض تجري بها المياه ، وهي الآبار التي تحفر في

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٣ وما بعدها) ، (غمر) .
٢ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٣ الهمداني (ص ٨٠) ، Rhodokanakis, II, S. 95, Hartmann, Arab. Frage, S. 400.
٤ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٨) .
٥ جامع الاصول (١١/٢٢٨) .
٦ تاج العروس (٢/٤١٦) ، (عدّ) .

الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويسيح على وجه الأرض[1] . ويكثر وجودهـا في العربية الجنوبيـة ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد استفيد من بعضها في الشرب والسقي . والقنا والفقر ، واحد[2] ، و (الفقرة) الحفرة في الأوض[3] .

التلاع :

وقد تنحدر المياه من عيون في الاسناد والنجاف والجبال حتى تنصب في الأودية وفي الأماكن المنحدرة ، مكونة تلاعاً . و (التلعة) مسيل الماء من أعلى الوادي الى أسفله . والتلاع مجاري أعلى الأرض الى بطون الأودية . وتلعة الجبل أن الماء يجيء فيخدّ فيه ويحفره حتى يخلص منه . وربما جاءت التلعة من أبعد من خمسة فراسخ الى الوادي ، فإذا جرت من الجبال فوقعت في الصحارى حفرت فيهـا كهيأة الخندق ، وإذا عظمت التلعة حتى تكون مثل نصف الوادي أو ثلثيـه ، فهي ميثاء . وقد تجري التلاع عند سقوط المطر وتكوين السيول ، فيجري الماء بسرعة جارفة ، تجرف ما قد يقف أمامها من مانع . ولذلك كانوا يخافون نزول التلعة ، خشية خطر مجيء السيل فيجرف من قد يكون فيها . وللعرب أمثلـة في التلاع ، منها : (لا يمنع ذنب تلعة) ، يضرب للذليل الحقير ، و (لا أثق بسيل تلعتك) ، يقال لمن لا يوثق به ، (ما أخاف إلا من سيل تلعتي) ، أي من بني عمي وأقاربي ، لأن من نزل التلعة ، وهي مسيل الماء ، فهو على خطر ان جاء السيل جرف به[4] . مما يدل على غرق أناس في هذه التلاع .

ويقال لمسيل ما بين التلعتين (المذنب) ، وذنب التلعة . والمذنب مسيل في الحضيض ليس بخدّ واسع . وأذناب الأودية ومذانبها أسافلها . وقال بعض علماء اللغة : المذنب : مسيل ما في الحضيض والتلعة في السند ، والجدول يسيـل عن الروضة بمائهـا الى غيرها ، فيتفرق ماؤها فيها ، والتي يسيل عليها الماء مذنب أيضاً . قال امرؤ القيس :

---

١ تاج العروس (١٠/٣٠٤) ، (قنو) .
٢ عرام ، أسماء جبال مكة وتهامة (ص ٤١٣) .
٣ تاج العروس (٣/٤٧٥) ، (فقر) .
٤ تاج العروس (٥/٣٩١) ، (تلع) ، (١/٦٤٨) ، (ميث) .

وقد اغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب[1]

واذا انحدر المطر الى موضع واطىء ، قيل إنشل ، وانشل السيل وانسل ابتدأ في الاندفاع قبل أن يشتد[2] .

و (الوشل) : ماء يخرج من شاهقة ، فيسقط الى منحدر[3] . وتوجد الأوشال في الجبال ، وفي الشواهق . وذكر علماء اللغة ان الوشل المساء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، يقطر منه قليلاً قليلاً ، أو الماء الكثير ، فهو من الأضداد . وفي تهامة جبل يقال له الوشل فيه مياه كثيرة . وقد يقال للقطرات التي تنزل من سقف كهف أو لحف جبل فتجتمع في أسفله الوشل[4] .

التحكم في الماء :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ، عمد أهل الجاهلية الى اتخاذ مختلف الوسائل في التحكم فيها . بعضها بدائية وبعضها راقية تدلّ على براعة وعلم وفن . منها اتخاذ السدود للهيمنة على الماء ، وخزنه للاستفادة منه عند الحاجة ، وتوجيهه الجهة التي يريدونها . وقد أظهر العرب الجنوبيون مقدرة كبيرة في الاستفادة من الأمطار ومن مياه الينابيع والأنهار لاستعمالها في الإرواء والشرب والسقي . وتحكم مهندس الإرواء عندهم في الماء وسيطر عليه ، لكيلا يذهب هباء ، فاستخدم لضبطه الأبواب والفتحات والحواجز والرحاب ، ونوّع في المجاري وفي مسايل المياه ، ليستفيد من الماء قدر إمكانه فلا يفلت منه شيء .

ولم يكن من السهل على حكومات ذلك الزمن السيطرة على مياه السيول والاستفادة منها ، فكانت تذهب سدى ، بعد أن كانت تصيب الأرض والناس بالأضرار وحين تنحدر هذه السيول من النجاد والجبال والأمكنة المرتفعة ، تتحول الأودية فجأة وبسرعة أنهاراً عريضة كبيرة ، تسيل مياهها مندفعة هدارة ، لكنها لا تلبث

---

١ تاج العروس (١/٢٥٥) ، (ذنب) .
٢ تاج العروس (٧/٣٩٥) ، (شلل) .
٣ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٧) ، (نوادر المخطوطات) .
٤ تاج العروس (٨/١٥٤) ، (وشل) .

طويلاً، بل تزول وتذهب وتجف الأودية ولا يبقى فيها من الماء شيء ، إذ يسيل الى البحر أو يغور في التربة . وقد اجتهد الجاهليون أن يستفيدوا من هذه السيول فأقاموا السدود على قدر إمكانهم كما فعلوا في سدّ مأرب وفي سدود أخرى كما يظهر من الآثار ، ولكن قدرتهم الفنية والمالية لم تكن من الاتساع والقوة بحيث تساعدهم على السيطرة على السيول .

وقد عثر على آثار سدود في مختلف أنحاء جزيرة العرب . وقد أنشئت في المواضع التي يزورها الغيث وتنهمل عليها الأمطار . وقد تقام لضبط مياه النهيرات والينابيع ، لجمعها ، ثم إعادة توزيعها . وبعض هذه السدود المندثرة هو اليوم في مناطق صحراوية لا ماء فيها ولا بشر ، مما يشير الى أنها كانت مأهولة ، ثم عفى على أهلها الدهر ، فأهملت وتهدمت .

وبعض هذه السدود ، سدود بسيطة ، صنعت من تراب أو من تراب وحجارة لمنع ماء المطر من الذهاب عبثاً ، فيسدّ طريقه ويحبس في منخفض أو حوض ليستفاد منه . وقد أمر الرسول بسدّ ماء السماء في موضع ليستفاد من الماء ، فعرف بـ (سد) . ويطل جبل (شوران) على السد[1] . وأمر (معاوية) بسد الوادي الذي يمر بحرة المدينة ، فحبس سيله بسد ، عرف بسد معاوية فهو يحتبس فيه الماء ، يرده الناس بمواشيهم يسقونها[2] . ويمر على طرف (قدوم) ويصب في (أحد)[3] . و (قدوم) جبل على ستة أميال من المدينة[4] .

وتتخذ (المُسُك) لمسك الماء وحبسه ، تمنعه من الذهاب عبثاً . كأن تمنعه من ان ينصب في البحر[5] .

ويقال للسد (عرمن) في العربيات الجنوبية ، أي (العرم) . فلفظة (العرم) تعني السد عند اليمانيين القدماء ، ولم تكن علماً على سد معين . أعني سد مأرب . وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم سيل العرم »[6] .

---

١ عرام ، أسماء جبال تهامة (ص ٤٢٥) .
٢ بلاد العرب (٤٠١) .
٣ البلاذري ، فتوح (٢٦) .
٤ تاج العروس (٩/٢٠) ، (قدم) .
٥ تاج العروس (٧/١٧٧ وما بعدها) ، (مسك) ، عرام ، أسماء جبال تهامة (٣٩٧) .
٦ سورة سبأ ، الآية ١٦ .

وفي هذه الآية اشارة الى حادث انفجار سد مأرب كما يذهب الى ذلك المفسرون.

وتولت الحكومات في اليمن إنشاء السدود وحفر القنوات والسواقي ، وأنفقت على الأعمال من أموالها ، وقدّمت المواد الغذائية وبعض الأجور الى العمال . وكانت تطلب الى سادات القبائل والقرى تقديم الرجال للعمل وتقوم هي بإعاشتهم طوال أيام عملهم ، كالذي ورد في نص (أبرهة) عامل الحبشة على اليمن ، فقد كان يقدم الطعام الى العمال لقاء اشتغالهم ببناء السدّ . وقد ذكر مقدار ما قدّمه وما صرفه عليهم من طحين وبرّ وتمر ولحم وقد يشغل العمال سخرة ، فلا تدفع الحكومة أو سيد القبيلة أو الموضع اليهم شيئاً . وقد كانت السخرة شائعة في ذلك العهد ، لا في اليمن حسب ، بل في العالم القديم كله ، فيسخر العمال بتكسير الحجارة واقتلاعها من المحاجر ونقلها الى الأماكن التي يراد إقامة السدود أو منشآت البناء فيها أو غير ذلك ، ثم بإصلاحها وببقية أعمال البناء اللازمة ، الى أن تنجز ، وعندئذ يسمح لهم بالانصراف الى حيث يشاؤون .

وفي الحالات الاضطرارية يحشر الناس حشراً ، كما في الفيضانات المفاجئة التي تنشأ عن السيول . فتحشر الحكومة ورؤساء المدن والعشائر كل من يجدونه أمامهم للعمل على إنشاء الحواجز والسدود وفتح المجاري لمرور المياه لانقاذ الأرواح والأموال من الكوارث والأضرار .

وقد تتولى المعابد هذه الأعمال ، فتصرف عليها من واردها ، تعدّ ذلك هبة أو ديناً تتقاضاه من أصحاب الأرض ومن المستأجرين في المدن والقرى، كما يتولاها أيضاً رؤساء القبائل ، بأن يكلفوا القبيلة القيام بذلك العمل ، مقابل تعهدهم بتقديم الطعام للمشتغلين به ، وقد يكلفونهم ذلك سخرة مستخدمين حق القوة التي يتمتعون بها إن كانوا رؤساء أقوياء .

وفي كتب أهل اللغة والأخبار تعابير عديدة عن سيل السيول ، وأثرها في الأرض وجرفها التربة وما عليها ، وتفتيتها أشفار الأودية والأماكن التي تنحدر منها وكيفية قلعها الأشجار والصخور[1] . يظهر منها كلها ان أثر السيول كان شديداً مؤذياً ، وهو ما زال على أذاه الى هذا اليوم .

---

١ المخصص (١٢٦/٩ وما بعدها) .

المسايل :

وللسيطرة على المياه ، ولا سيما مياه الأمطار ،عمد العرب الجنوبيون الى الوسائل الصناعية الفنية في التحكم فيها ، فأنشأوا المجاري الصناعية لتجري فيها المياه وتسيل فلا تذهب عبثاً ولا تجري في القنوات إلا بقدر . ومن هذه المجاري ما يقال له (ماخذ) و (ماخذت) في لغة المسند . أي (مأخذ) و (مأخذة) . ويراد بالمأخذ المجرى المحفور المعمق لمرور المياه الى الحقول والبساتين أو المعابد[1] .

ويقال للقناة أي الممر الذي تمرّ منه المياه (عبرن) في اللهجات العربية الجنوبية، أي المعبر . ذلك لأن المياه تعبرها وتجري فيها وتسيل منها الى الأماكن التي كان يقصد وصولها اليها[2]. وترد بكثرة في النصوص المتعلقة بتنظيم الإرواء وفي النصوص المتعلقة بشؤون الزراعة . وأما لفظة (امررن) فتعني (المرور) ، والامرار و (الممرات) ، وقد وردت في النصوص الزراعية بمعنى الممرات المائية التي تجري فيها المياه ، فهي بمعنى سواقٍ لإسقاء الأرض[3] . وأما الممر الواحد أو الوادي ، فيقال له (سرن)[4] .

وترد كثيراً في النصوص المتعلقة بشؤون الإرواء لفظة (حرت) . ووروودها فيها يدل على وجود علاقة لها بالإسقاء والإرواء. ويظهر أن لهذه اللفظة صلة بلفظة (خر) العربية التي تعني ما خدّه السيل من الأرض ، والشق ، فيقال خر الماء الأرض خراً اذا شقها ، والهوى من علو الى أسفل ، واذا تدهدى الشيء من علو[5] . وهي بهذا المعنى وبمعنى ثقب وفتحة في لغة بني إرم وفي العبرانية المتأخرة، وتؤدي لفظة (خرو) Harru معنى قناة في الأشورية . وهذا يدل على ان للفظة (حرت) معنى قناة أو فتحة تفتح في السد ، أو في مجرى ماء ، لإسالة الماء من الفتحة الى القناة أو المجرى المخصص بجري الماء[6] .

وقد عثر السيّاح الذين زاروا اليمن ودرسوا آثار السدود على (حرّات)

---

١ RW 59, Bu. San'a 1909, Jemen, II, 341, Mordtmann und Mittwoch, Sab. Inschr., S. 17.

٢ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 210.

٣ REP. EPIGR. 4351, VII, II, p. 209.

٤ REP. EPIGR. 4351.

٥ تاج العروس (٣/١٧٢) ، (خرّ) .

٦ Rhodokanakis, Stud. Lexl., II, S. 81, 85, 115.

كثيرة تتخلل جـانبي السدّ . وهي عبارة عن فتحات مستديرة ، تختلف أقطار فتحاتها بحسب كميات المياه المراد إمرارها منها الى (القنوات) . وهذه الفتحات هي الحرات (حررتن) . والفتحة الواحدة هي (حرت) (حرة)[1] .

ويعبر عن احداث فتحة أو ثغرة في جدار أو جبل أو في صخرة لإسالة الماء منها أو فتح شيء ما ، بلفظة (بلق) . وتؤدي لفظة (مخض) معنى (بلق) أيضاً ، فهي أيضاً بمعنى احداث ثغرة أو فتحة ، غير أنهـا تستعمل للتعبير عن معانٍ أخرى مثل فتح الطرق وشقها في الجبال في الغالب ، أو احداث طريق فوق (منقلن) . ويراد بالمنقل معنى (نقيل) أي ممر .

ولما كانت العربية الجنوبية ذات جبال ومرتفعات ، تصطدم بها الرياح المتشبعة بالأبخرة ، فتتساقط مطراً ، عمل المهندسون على الاستفادة من هذه الأمطار بالتحكم فيها وبتوجيهها الجهة التي يريدونها ، وذلك بإحداث فتحات في الصخور وعمـل قنوات وأنفاق لإكراه الماء على المرور منها الى المواضع التي يريدون خزنها فيهـا للاستفادة منهـا عند الحاجة ، ولتكوين مسايل كبيرة تتجمع فيها المياه فتجري كالأنهار .

وتؤدي لفظة (قلح) معنى سال وجرى وصب ، ولها معان أخرى ذات صلة بالحركة . وبهـذا المعنى ترد لفظة (سفح) كذلك[2] . ولسفح في عربيتنا معنى قريب من معناها في المسند ، فمن معاني السفح ، عرض الجبل حيث يسفح فيه الماء ، وسفح بمعنى سال وأراق وصب[3] . وهي معان لها صلة بجريان الماء .

وأما لفظة (منفخت) (منفخة) و (منفخ) ، من أصل (نفخ) ، فإنها تعني فتح الماء واسالته ، وذلك بفتـح الفتحات الماسكة له ليسيل منها الى المجاري المخصصة بمسيله . وهي في معنى لفظـة (منفس) التي هي من أصل (نفس) . ويراد بها خروج المـاء وجريانه من الفتحات الحابسة له وارتفاعه نتيجة لفتح الماء . وهي من ألفاظ الإرواء الواردة في الكتابات العربية الجنوبية[4] . ويستعمل العراقيون جملة (تنفس الشط) ، بمعنى ارتفع ماء النهر وزاد ، وذلك

---

١ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 118.

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 62.

٣ تاج العروس (٢/١٦٤) ، (سفح) .

٤ Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 82.

في ايام الفيضان . و (تنفس الموج) و (تنفس دجلة) . فالمنفخ والمنفس اذن في معنى واحد ، ويطلقان على عملية رفع مستوى الماء بزيادة كمياته من الفتحات التي تضبطه وتسيطر عليه ، لأجل رفع مستواه في الأنهار أو في المجاري والسواقي لإرواء الأرضين في يسر وسهولة ، ولا سيما الأرضين المرتفعة بعض الارتفاع .

ويقال لمجرى الماء الصغير المتفرع من مجرى أوسع منه (مسبا) . وذهب بعض الباحثين الى أن المراد بهذه اللفظة الصهريج . وقد عرف علماء اللغة (المسبا) بأنه الطريق في الجبل[1] .

أما السواقي ومجاري الماء الصغيرة التي تستعمل في اسقاء المزارع والحدائق ، فيقال لها (مسقيت) ، أي (مسقية) و (ساقية)[2] . وذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة (مسفحة) (المسفحة) ، تعني الساقية أيضاً[3] .

ويعبر عن خروج الماء وسيلانه ونزوله بلفظة (فجر)[4] . و (الفجر) في عربيتنا تفجير الماء ، يقال انفجر الماء وتفجر : سال وانبعث . والمفجر والمفجرة منفجر الماء من الحوض وغيره . وفجرة الوادي ، متسعه الذي ينفجر اليه الماء[5] . و (الشرج) مسيل ماء من الحرة الى الوادي ، ومنفسح الوادي[6] ، فلها علاقة بمسير الماء وسيلانه . وبهذا المعنى وردت لفظة (سفح) في المسند[7] .

المصانع :

وللاستفادة من ماء المطر استعملوا المصانع ، جمع مصنعة . مساكات لماء السماء ، يحتفرها الناس فيملؤونها ماء السماء يشربونها . والمصنعة كالحوض أو شبه

---

١ « والمسبأ كمقعد الطريق في الجبل » ، تاج العروس (١/٧٦) ، (سبأ) ، Rhodokanakis, Stud. Lexi., II, S. 112, Hommel, Aufs. und Abbädlungen, S. 126.

٢ Glaser 1150, Halevy 193, 199.

٣ Müller, WZKK, II, S. 189, Rhodokanakis, Stud. Lexi, II, S. 89.

٤ Halevy 149, Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59.

٥ تاج العروس (٣/٤٦٤) ، (فجر) .

٦ تاج العروس (٢/٦٣) ، (شرج) .

٧ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 59, Alt. Sab. Inschr., S. 77.

الصهريج ، وذكر ان الحبس مثل المصنعة[1] . وذكر ان المصانع مساكات لماء المطر يحتفرها الناس ، وأن العرب تسمي القرى مصانع ، تقول هو من أهل المصانع ، أي القرى والحضر ، والمصانع أيضاً المباني من القصور والآبار وغيرها والحصون . والصنع ، مصنعة الماء ، وهي خشبة يحبس بها الماء وتمسكه حيناً ، وسمت العرب أحباس الماء الأصناع ، وبهذا المعنى :الصناع والصناعة[2]. و(الرصف) السد المبني للماء[3] . ويكون من حجارة مرصوف بعضها الى بعض في مسيل فيجتمع فيها المطر[4] .

السكر :

ويعبر في لهجة أهل الحجاز بلفظة (سِكْر) و (سكر الأنهار) عن سدّ الماء وحبسه ، وذلك لضبط الماء ، فلا يتسرب الى المزرعة أو الى مكان فيغرقه، أو لحبس الماء للاستفادة منه في الإسقاء[5] . وقد يكون السكر ثابتاً دائماً ، مبنياً له فتحات تغلق وتفتح وقت الحاجة اليه ، وقد تكون مؤقتة تزال وتسدّ بحسب الحاجة ، وتكون هذه في السواقي والنهيرات . وتؤدي لفظة (حبس الماء) معنى سدّه ومنعه من السيلان والجري ، وذلك بواسطة السكر والحاجز المقام . وتؤدي لفظة (السكر) ، أيضاً معنى سدّ النهر و (العرم) أي السدّ، والمسناة[6] .

الأحباس :

و (الحبس) خشبة أو حجارة تبنى في مجرى الماء لتحبسه ، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم . والجمع أحباس . وقيل ما سدّ به مجرى الوادي في أي

---

١ تاج العروس (٥/٤٢٢) . (صنع) ، المخصص (١٠/٥٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٤٢٢) ، (صنع) .
٣ المخصص (٩/١٥٣) .
٤ تاج العروس (٦/١١٧) ، (رصف) .
٥ عمدة القارىء (١١/٢٠٠ وما بعدها) ، (باب سكر الانهار) ، تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٧٤) ، (سكر) .

موضع حبس . وقيل الحبس كالمصنعة تجعل للماء[1] . و (العرمة) سدّ يعترض به الوادي ليحتبس به الماء ، والأحباس تبنى في أوساط الأودية[2] . و (الرجيع) محبس الماء ، و (الخرنق) مصنعة الماء ، والسرج والقرى والحافشة . وهذه مسايل الماء[3] . و (الخربق) مصنعة الماء واسم حوض[4] . و(الردم) السدّ[5] . و (الحواجر) و (الحاجر) ما يمسك الماء من شفة الوادي ويحيط به[6]. ومن الأحباس : حبس ضعاضع . جبيل عنده حبس كبير يجتمع عنده الماء . وهو حجارة مجتمعة وضعت بعضها على بعض[7] .

وتكون على السواقي ومسايل الماء والسدود ، مسايل جانبية ، تفتح عند الحاجة لمرور الماء منها الى المزارع ، تخرج من المسيل الأعظم يمنة ويسرة ، يقال لها : (النواشط) . وطريق ناشط ، اذا كان ينشط من الطريق الأعظم يمنة ويسرة[8] .

وقد كان نضوب الماء من الآبار والغدران ومواضع الماء الأخرى من المشكلات التي جابهت الجاهليين . ومن المشكلات التي ما برح سكان جزيرة العرب يواجهونها اليوم أن بعض الآبار يغور ماؤها ، فيضطر الناس الى ترك أماكنهم ، أو قد يتبدل طعم الماء ، فلا يكون مستساغاً للشرب ولا مجدياً في الزراعة . وحفر الآبار في مواضع متقاربة يؤدي الى انخفاض مستوى الماء أو نضوبه في كثير من الأحيان. وقد أدى إهمال الناس للآبار الى تراكم الأتربة فيها ، وانهيار جدرانها ، ونضوب الماء منها ، وارتحال الناس عنها .

السدود :

السد في اللغة الحاجز ، والوادي فيه حجارة وصخور يبقى الماء فيه زماناً .

---

١ تاج العروس (١٢٤/٤) ، (حبس) ، اللسان (٤٥/٦) ، (حبس) .
٢ تاج العروس (٣٩٥/٨) ، (عرم) .
٣ تاج العروس (٣٣١/٦) ، (خرنق) .
٤ تاج العروس (٣٢٧/٦) ، (خربق) .
٥ تاج العروس (٣٠٩/٨) ، (ردم) .
٦ تاج العروس (١٢٥/٣) ، (حجر) .
٧ قال الشاعر :
وان التفاتي نحو حبس ضعاضع واقبال عيني في الظبا لطويل
عرام ، أسماء جبال تهامة (٤١٠) .
٨ تاج العروس (٢٣٢/٥) ، (نشط) .

وقد كان الجاهليون يقيمون حواجز عند مخارج السيول ، لحبس الماء في المنخفضات لتكوين أحواض لحفظ الماء فيها ، للاستفادة من مائها عند انقطاع السيول وظهور الجفاف . ولما كان بناء سد ضخم بحجارة وبجدر مرتفعة طويلة ، عمل يحتاج الى مهارة وخبرة والى مال ، والى وجود حكومة كبيرة متمكنة من الناحية المادية ، وهي شروط لم تكن متوفرة في معظم أنحـاء جزيرة العرب ، ما خلا اليمن ، صارت السدود في معظم أنحـاء جزيرة العرب سدوداً صغيرة بدائيـة في أغلب الأحيان ، هي مجرد حواجز من تراب أو من صخور كدّست بعضها فوق بعض لحبس الماء في المنخفض ومنعه من الجريان . وقد شاهد السياح آثار سدود جاهلية في أنحاء جزيرة العرب ، ووصفوها ، وذكروا أن من الممكن الاستفادة من بعض تلك السدود ومن مواقعها ، وأشادوا بمقدرة من شيدها وأقامها وبقابلياته الهندسية وبفطنته في حسن اختيار المواقع ، بالرغم من ضعف القدرة الفنية وبدائية الأساليب التي استعملت في ذلك الزمن[1] .

ومن السدود : (السد) ماء سماء في (حزم بني عوال) ، جبيل لغطفان أمر الرسول بسدّه . وسد (أبـي جراب) أسفل من عقبـة منى دون القبور عن يمين الذاهب الى منى ، منسوب الى (أبـي جراب عبدالله بن محمـد بن عبد الحارث بن أمية الأصغر) ، وسد قناة[2] ، وسد (العياد) ، وقد أقيم في موضع يبعد عن الطائف زهاء ستة أميال ، كتب عليه بالخط الكوفي المحفور على الحجر : « هذا سد عبدالله بن معاوية أمير المؤمنين . بناه عبدالله بـن ابراهيم » . وكان ذلك سنة (٥٨) للهجرة . وقد أقيم بالحجارة وحدها ، فلم يضع مهندسه ، عبدالله ابن ابراهيم ، مادةً من مواد البناء مثل الملاط أو الطين وما شابه ذلك بين الحجارة لتثبيتها وضمها بعضها الى بعض حتى تتماسك ، فتكون كأنها قطعة واحدة . وهي طريقة معروفة في اليمن ، استعملها المهتدسون الجاهليون كما يظهر ذلك من فحص الخرائب العتيقة الباقية من الأبنية والسدود الجاهلية . ولا يزال هذا السدّ في حالة ممتازة يتحدث عن نفسه وعن قدرة المهندس الذي أقامه في هذا المكان .

---

١ تويتشل ، المملكة العربية السعودية (ص ٥٠) .

٢ تاج العروس (٢/٣٧٣) ، (سدد) .

سد مأرب :

واستبد سدّ مأرب من بين سائر سدود جزيرة العرب بالإسم والذكر ، ونال مكانة كبيرة في كتب التفسير والسير والأخبار . ولذكر القرآن لـ (سيل العرم)، نصيب كبير في توجيه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار اليه ، وفي خلود اسمه الى الآن . وقد روى أهل الأخبار قصصاً عنه وعن كيفية خرابه ، وتشتت شمل سبأ بسببه ، ونزوحهم الى مواضع بعيدة عن ديارهم القديمة .

ويعدّ سدّ (مأرب) من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب. وقد بني من أجل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التي تتدفق منها لوقاية المزارع والقرى منها ، وللاحتفاظ بهذه السيول للاستفادة منها إذا انقطعت الأمطار . وإرواء مناطق واسعة من الأرضين ، جيدة التربة ، خصبة مثمرة . لكن بها حاجة شديدة الى الماء ، وما كان في الامكان إنباتهـا لولا السيطرة عـلى السيول وإنشاء هذا السدّ .

وتأتي السيول الى السد من أماكن عديدة ، من (ذمار) ، و (جهران) ، و (الحدي) ، و (حولان) ، وبلاد مراد ، وقيفة ، وعروش ، وجوانب ردمان ، وشرعة ، وكومان وغيرها ، وذلك اذا أمطرت السماء وتجمعت فيهـا السيول وانحدرت . حتى تنتهي إلى وادي (أذنة) ، فتسير فيه المياه حتى تنتهي إلى مضيق بين جبلين ، يقال لكل منهما (بلق) ، ويسميهما (الهمداني) مأزمي مأرب ، تسير المياه فيه حتى تدخل منخفضاً من الأرض واسعاً ، هو حوض هذا السد . تدخر مياه الأمطار فيه . وله سدود وأبواب لحجز الميـاه وحبسها ، أو لتصريفهـا حسب الحاجة . فتمر من أبواب تفتـح وتغلق ،لتمر المياه منها في قنوات توزع إلى الأماكن التي يراد توجيه الماء اليها [1] .

ولا توجد لدينا نصوص عن أول رجل أقام هذا السد ، وعن العهد الذي تم فيه البناء . وكل ما لدينا اليوم عن وقت بنائه لأول مرة هو لذلك حدس وتخمين .

---

١ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٧٠ وما بعدها) ، العظم (٨٨/٢ وما بعدها) ، البلدان (٣٨٣/٤) ، حمزة (١٢٦) ، الاغاني (٧٢/١٦) ، الصفة (٨٠) ،
Müller, Burgen, II, S. 83. f.

ويرى (كلاسر) أن عهده يعود الى السنة السبعمئة قبل الميلاد[1] . وقد بقي قائماً يؤدي واجبه الى حوالى السنة (٥٧٥) بعد الميلاد[2] . ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدرانه بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها ، وآخرها هو اصلاح أبرهة له الذي تمّ على أثر تصدعه سنة ٥٤٢ للميلاد . ويظهر أن تصدعاً آخر وقع للسدّ في أيام طفولة الرسول ، وذلك في حوالى السنة (٥٧٥) للميلاد ، لم يكن من الممكن التغلب عليه، بسبب التدهور الاقتصادي الذي حدث في هذا العهد في اليمن وارتباك الأوضاع السياسية واضطراب الأمن وانتشار الثورات في كل مكان وتدخل الأجانب في شؤون البلاد، فتصدع قسم كبير منه ، ولم يهتم أحد من الحاكمين في اعادته الى أصله بإصلاحه وترميمه ، وتحولت بذلك الأرضين الخصبة التي كانت تروى بمائه والتي كانت واسعة إلى أرضين موات ، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة وألبستها أكسية الصحراء الحزينة ، حداداً على فراقها لذلك السدّ العتيد .

وتعود أقدم الكتابات الباقية إلى أيام (المكربين) . وتأتي كتابة (سمه على ينف) (سمهعلى ينوف) مكرب سبأ على الرأس . ويظهر منها ان هذا المكرّب قد أقام سد (رحاب) ، وقد اشتغل به ابنه (يثع أمر بين) وقوّاه ، كما بنى سداً آخر عند (حبابض) ، ويقع في المنطقة الشمالية من سد مأرب[3] .

وقام المكرب (كرب ال بين بن يثع امر) ، ببناء جزء من السد وتقوية أجزائه الأخرى . كما قام الملوك بإضافة أجزاء جديدة اليه ، وتقوية الأجزاء القديمة منه . ومن هؤلاء الملك (ذمر على ذرح) ملك سبأ ، والملك (يدع ال وتر) (يدع ايل وتر)[4] .

كذلك أصلح الملك (شمر يهرعش) هذا السد ، ورممه الملك (شرحبيل يعفر) في سنة (٤٤٩) للميلاد . ولكن المياه جرفت أقساماً منه سنة (٤٥٠) للميلاد ، أي

---

١ Ency., III, p. 290.

٢ A Grohmann, Südarabien als wirtschaftsgebiet, II, 23-28, A. Grohmann, S. 151.

٣ Ency., III, p. 290, Müller, Burgen, II, S. 13. f.

٤ Müller, Burgen, II, S. 15.

بعد سنة من الترميمات ، فاضطر إلى إعادة إصلاحه وتقويته[1] .

وقد أقام المهندسون في الجهة الضيقة التي تسيل منها السيول الى المجـاري ثم الى حوض واسع سـداً قوياً طوله نحو من (٥٧٧) متراً ونصف المتر ، عرف بـ (رحاب) في المسند . أقيم في المنطقة التي تضيق فيها الشقة بين جزءي جبل (بلق) ، حيث يمر بينهما وادٍ يفصل بين الجزءين المعروفين بـ (بلق القبلي) و (بلق الأوسط) . فسدّ الوادي بذلك وتحكم السد بمسير ماء السيول . وصار يجري من خلال فتحة ، هي باب يتحكم الإنسان فيهـا كيف يشاء الى (وادي أذنة) (وادي ذنـة) ، حيث يملأ الحوض[2] . وينتهي الحوض بسدين آخرين أقيما لتنظيم تصريف الماء المخزون عند الحاجة وتوجيهه الى الأرضين المحتاجة اليه ، بهما منافذ هي أبواب تفتح وتغلق للتحكم في توزيع الماء .

وقد استخدمت في بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض ، وتثبت وتتماسك وتكون وكأنهـا قطعة صلدة واحدة . ونحتت الصخور ، بحيث صارت تتداخل بعض في بعض ، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها ، فتكون كالمفتاح في القفـل ، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط ارتباطاً وثيقاً ، وتكون كأنها صخرة واحدة . وقد وجد ان بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان اسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس يبلغ طول الواحد منها حوالى (١٦) سنتمتراً ، وقطرها حوالى الثلاثة سنتمترات ونصف . وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر ، فإذا جمد وصار على شكـل (مسمار) ، يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال (المسمار) في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر ، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم . وقد اتخذت هذه الطريقة لشد أزر السد ، وليكون في امكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل[3] . أما المادة التي استعملت في البناء لربط الأحجار بعضها ببعض فهي من أحسن أنواع الجبس Gips ، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت

---

١ Glaser 554, Ency., III, p. 290.

٢ « وادي أذنة » ، الصفة (٨٠ ، ٩٤) .

٣ العظـم (٩٢/٢) . A. Grohmann, S. 152.

به واجهات السد أيضاً حتى صار كأصلب أنواع السمنت[1] .

وقد أقام المهندسون أبواباً لدخول المياه منها وخروجهـا ، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها عـلى المجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجـة المزارع والأماكن الى المياه . ولا يزال بعض جدر السد قائماً ، وآثار السواقي والمجـاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية ، وهي تدل على مهـارة مهندسي الري في ذلك العهد وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعـة لخدمة الإنسان .

وبنيت في اليمن سدود أخرى ، منها (قصعان) ، و (ربوان) ، وهو سدّ قتاب ، وشحران ، وطمحان ، وسد عباد ، وسد لحج ، وهو سد عرايس ، وسد سحر ، وسد ذي شهال ، وسد ذي رعين ، وسد نقاطـة ، وسد نضار وهران ، وسد الشعباني ، وسد النواسي ، وسد الخانق بصعدة ، وسد ريعان ، وسد سيان ، وسد شبام ، وسد دعان وغيرها[2] . وذكر (الهمـداني) أن في مخلاف (يحصب العلو) ثمانين سداً[3] .

وسد (الخانق) سد ينسب الى (نوال بن عتيك) مولى سيف بن ذي يزن ، ومظهره في (الخنفرين) من رحبان . وقد خرّبه (ابراهيم بن موسى العلوي) بعد هدم صعدة[4] .

وهناك آثار سدود جاهلية أخرى أقيمت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية . منها آثار سد قتباني أقيم عند موضع (هجر بن حميد) بوادي بيحان . وقـد درسه ووصفه (بوون)[5] . كان يسقي بمائه منطقة واسعة من أرض مملكة قتبان .

---

١ A. Grohmann, S. 152.

٢ زيدان ، العرب قبل الاسلام (١٦٩) ، Müller, & Südarabische, S. 88.

٣ الصفة (١٠١) ، زيدان (١٦٩) .

٤ زيدان ، (١٦٩) .

٥ A. Grohmann, S. 153, Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in G.J., 101, (1943), 116.

Philby, The Land of Sheba, G. J., 92 (1938), 113, 119.

وآثار سد (مرخة)[1] ، وآثار سد آخر أقيم عند (شبوة) ، وسد آخر عند (الحريضة) ، تفرعت منه شبكة من القنوات والمجاري لايصال الماء إلى المزارع والأرضين الخصبة التي تعيش عليها .

وقد ظهرت من الصور (الفوتغرافية) ، الذي أخذت من الجو لبعض مواضع من جزيرة العرب آثار شبكات للإرواء تتصل بأحواض مياه وسدود أقيمت لخزن مياه الأمطار فيها للاستفادة منها وقت الحاجة . ففي (وادي عديم) آثار جدر سدود وقنوات ومجاري مياه متصلة بعضها ببعض تمتد إلى مسافات بعيدة كانت تمدها بإكسير الحياة . وكذلك تشاهد آثار الإرواء عند (حصن العر) و (ثوبة) في القسم الجنوبي من (وادي حضرموت) . وقد نحتت الصخور عند (نجران) لعمل ممر منها للماء ليذهب إلى حوض واسع أحيط بسد وجدار حيث يمكن خزن مئة مليون (غالون) من الماء فيه[2] .

توزيع الماء :

وقد يوزع الماء الجاري من العيون والأنهار ، بالنصيب . بأن تعين أوقات تفتح فيها المياه على مزرعة ما ، فإذا انتهى الوقت سد الماء ، وحُوّل الى مزرعة أخرى ، وذلك لقلة الماء وعدم كفايته في اسقاء المزارع كلها دفعة واحدة،فيوزع بالحصص ، في أوقات تثبت وتعين . وقد تقع الخصومات من جراء التجاوز وعدم التقيد بضبط الأوقات ، كما يحدث في أيامنا في كثير من الأماكن الزراعية . ونجد في كتب الأخبار أمثلة عديدة من أمثلة هذا النزاع . ويقال للنصيب من السقي (سِقي)[3] . أي الحظ من الشرب[4] .

---

١ G. Gaton Thompson — E.W. Gardner, Climate, Irrigation and Early man in the Hadhramaut, G.J., 93 (1939), 34. f, A. Grohmann, S. 153.

٢ A. Grohmann, S. 153, Philby, The Land of Sheba, G.J., 92 (1938), 16.

٣ المفردات ، للاصفهاني (٢٣٥) .

٤ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) .

حقوق الري :

وللجاهليين أعراف محلية قامت مقام القوانين في الاستفادة من الماء . والمياه عندهم ، اما مياه طبيعية لا دخل لليد الإنسان في استنباطها ، مثل مياه الأمطار والعيون والأنهار . واما مياه وجدت باستنباط الانسان لها ، باستخدام ماله ويده في تذليلها، كمياه الآبار والعيون التي يفجرها الانسان ومياه الصهاريج والكهاريس والمياه التي تتجمع من إقامة السدود وما شاكل ذلك مما للإنسان يد وعمل في الاستفادة منها .

وطبيعي ان تختلف هذه الأعراف باختلاف مواضع جزيرة العرب . فالمياه في العربية الجنوبية من أمطار ومن مياه مستخرجة أو نابعة هي أكثر بكثير من مياه أي منطقة أخرى من جزيرة العرب . ولهذا نجد لها ذكراً في الكتابات العربية الجنوبية ، حيث نجد فيها إشارات إلى أحكام وإلى كيفية السقي وحقوق أصحاب الأرض في الماء وحقوق المستأجرين للأرض في الماء وإلى خصومات وقعت بينهم في موضوع حقوق التصرف بالماء .

ولدينا في الوقت الحاضر كتابات ، هي قوانين صدرت من حكومات العربية الجنوبية في تنظيم حقوق السقي والاستفادة من الماء ومن حق الانتفاع من الآبار . كما تعرضت لموضوع حقوق شراء الأرض ، وكيفية بيعها وما إلى ذلك مما يتعلق بالري والزراعة .

وأما في الحجاز ، فقد استخدمت الآبار المحفورة ، يحفرها أهلها ليستفيدوا من مياهها في الشرب وفي اسقاء الزرع والمواشي ، وقد يكرونها لغيرهم مقابل كراء يعين . لهذا وضعوا أعرافاً خاصة بالنسبة إلى الاستفادة من حقوق ملكية الآبار .

الخصومات بسبب الماء :

وطالما وقعت مشاحنات وخصومات بين أصحاب المزارع بسبب اشتراكهم في الماء ، في مثل الشراج والجعافر والأنهار وأمثالها ، إذ كان يستأثر بعضهم به ، ولا يدع الماء يسيل الى غيره إلا بعد أن يسقي زرعه سقياً كاملاً ،وكان أصحاب

المزارع الذين تقـــع مزارعهم في أعالي منابع الماء يستأثرون به ، بتوجيهـه الى مزارعهم ، أو بوضع سكر يحبس الماء عن البساتين الواقعة خلف السكر، فيذهب الماء الى مزارعهم ولا ينال المزارع الأخرى الا القليل منه.ونجد مثل هذه الخصومات في العربية الجنوبية وفي منطقة يثرب وفي مواضع الحسي وعيون الماء . وقد خاصم أنصاريٌ (الزبيرَ بن العوّام) عنـــد النبي في شراج الحرة ، وهي مسايل الماء التي يسقون بها النخل ، فقضى النبي ، أن يسقى الأعلى ثم الأسفل[1] .

---

١ ارشاد الساري (٤/١٩٧ وما بعدها) .

الفصل السابع والتسعون

معاملات زراعية

وقد تطرقت كتب الحديث والفقه الى ذكر معاملات زراعية ، كان المزارعون في الجاهلية يمارسونها . وهي عبارة عن عقود ومواثيق كانوا يأخذونها على أنفسهم بالقيام بأعمال زراعية معينة ، مثل : المحاقلة ، والمخابرة ، والمزارعة ، والمساقاة .

المحاقلة :

ولم ترد في نصوص المسند معلومات مسهبة عن المحاقلة عند العرب الجنوبيين . ولكن في استطاعتنا أن نقول انها لم تكن تختلف في أسلوبها عن المحاقلة عند أهل الحجاز قبيل الاسلام . والمحاقلة عندهم اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شيء آخر ، والمزارعة على نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر ، أو على الأوسق من التمر والشعير ، أو على الدينار والدرهم[1] . ويقال للمحاقلة (نحقل) في المسند[2] .

---

١ القاموس (٣/٣٥٩) ، جامع الاصول (١١/٤٧٨) ، تاج العروس (٧/٢٨١) ، (حقل) ، عمدة القارىء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٤/١٨٧) ، صحيح مسلم (٥/٢٦) .

٢ Rhodokanakis, Katab. Texte, I, S. 84.

والمخابرة هي المؤاكرة،وهي المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض[1]. وقيل : المخابرة المزارعة على النصف ونحوه ، أي الثلث ، والمزارعة على نصيب معين كالثلث والربع وغيرهما وقيل المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض[2]. والمؤاكرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع . وهي المخابرة[3] . وفي الحديث كنا نخابر ولا نرى بذلك بأساً حتى أخبر رافع ان رسول الله نهى عنها . وقد اختلف علماء اللغة في أصل اللفظة ، فقال بعضهم : هي من خبرت الأرض خبراً كثر خبارها ، وقال بعض آخر من خيبر ، لأن النبي أقرها في أيدي أهلها على النصف من محصولها ، فقيل خابرهم ، أي عاملهم في خيبر[4] . و (الخبر) في قول علماء اللغة الزرع ، ومن هذه اللفظة يجب أن يكون أصل المخابرة . ويظهر من اختلاف العلماء في تعريف المراد من لفظة المخابرة ، التي تعني المزارعة أنهم لما أرادوا وضع حد لمعناها ، وجدوا المخابرين أي المزارعين أنماطاً وأشتاتاً في تثبيت حصص المخابرة ونصيبها ، فحفظ كل ما سمعه ، وظن أن ما وعاه وسمعه هو المخابرة ، فجاءت تعاريفهم من ثمّ على هذا النحو . ولو أخذناها ودققناها، وجدنا أنها كلها شيء واحد ، هو : المخابرة المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع في الأرض . أما تثبيت الأنصبة ، فلا دخل له بالتعريف ، لأنه مجرد تعامل أشخاص واتفاق أفراد ، منهم من كان يزيد في النصيب ومنهم من كان ينقص منه ؛ حسب الحاجة ، على نحو ما يقع في كل تعامل مثل البيع والشراء .

والمزارعة ، المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها[5] ، فإن كان من العامل ، فهي مخابرة[6] .

وقد كانوا يتعاملون مع المزارعين أو الأجراء على (القصارة) . وهي ما يبقى في المنخل بعد الانتخال، أو ما بقي في السنبل من الحب ، مما لا يتخلص بعدما

---

١ جامع الاصول (١١/٤٧٢) ، شرح النووي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/١٦٧) ، (خبر) .
٣ تاج العروس (٣/١٧) ، (أكر) .
٤ تاج العروس (٣/١٦٧) ، (خبر) .
٥ تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .
٦ ارشاد الساري (٤/١٧٠) ، (ما جاء في الحرث) .

يداس ، أو ما يبقى عـلى الأرض من حب بعد التذرية[1] . فيشترط بعضهم ان تكون القصارة للمذري ، وقد لا يوافق على ذلك صاحب الزرع ، فتكون له . وقد يحدث الاختلاف بين صاحب الزرع وبين المذري ، بسبب اتهامه للمذري ، باستغلال الشرط ، والإفراط في إسقاط الحب على الأرض للاستفادة منه .

وذكر ان أحدهم كان يشترط في المزارعة ثلاثة جداول والقصارة، أي ما سقى الربيع . وقد نهى النبي عن ذلك[2] . والجدول النهر الصغير ، ونهر الحوض ونحو ذلك من الأنهار الصغار[3] .

ولما جاء المهاجرون إلى يثرب ، وكان بينهم قوم يحسنون الزراعة ، وكانوا يريدون عملاً يعتاشون منه ، حاقلوا أصحاب الأرض على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم ، كانوا يتفقون عليه . وقد نجح بعض منهم في استغلال الأرض ، وكسبوا منها . غير ان قسماً منهم اختصموا مع الملاّك ، بسبب توزيع الحاصل أو الماء ، فكان الرسول يتداخل بنفسه لحسم الخلاف . وقد صار الصحابة من من أهل مكة بين تاجر وبين زراع ، ورد في حديث (أبي هريرة) : « لم يشغلني عن النبي غرس الوديّ ، أي صغار النخل »[4] . وورد ان الأنصار قالوا للمهاجرين : تكفونا المؤونة في النخل بتعهده بالسقي والتربية ونشركم في الثمرة، واتفقوا على ذلك[5] .

وقد نهى الإسلام عن المحاقلة والمزارعة والمؤاكرة . وذلك لما كان يقع بسببها من خلاف بين المالك والفلاح ، وما كان يقع من ظلم في القسمة أو اختلاف على توزيع الحاصل . فلما جاء الرسول الى (يثرب) ، ورأى هذه الخصومات ، نهى عن إيجار الأرض وكرائها بقوله : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها ، فإن لم يفعل فليمسك أرضه »[6] . وفي رواية أخرى أنه لم « يحرم المزارعة ، ولكن قال أن يمنح أحدكم أخاه خير له من أن يأخذ شيئاً معلوماً ،

---

١ اللسان (٥/١٠٠ وما بعدها) ، (قصر) .
٢ اللسان (٥/١٠١) ، (قصر) .
٣ اللسان (١١/١٠٦) ، (جدل) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٨٧) ، (ودى) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٧٥) .
٦ عمدة القارىء (١٢/١٨٠ وما بعدها) ، تاج العروس (٥/٣٦٨) ، (زرع) .

لأنهم كانوا يتنازعون في كراء الأرض حتى أفضى بهم الى التقـــاتل بسبب كون الخراج واحداً لأحدهما على صاحبه ، فرأى أن المنحة خير لهم من المزارعـة التي توقع بينهم مثل ذلك »[1] .

وقد ذكر العلماء أن هذا النهي إنما وقع بسبب المنازعات التي كانت تقع فـيما بين الطرفين المتعاقدين ، لاتفاقهما على شيء مجهول ، وذكروا مثلاً آخر على ذلك هو كري المزارع على الأربعاء وبشيء من التبن . والربيع هو النهر الصغير. فتقع المنازعة ويبقى المزارع أو رب الأرض بلا شيء[2] . وقد كانوا يتعاقدون على ما ينبت على ربيع الساقي ، أي النهر الذي يسقي الزرع . فيقع اختلاف بين المزارع والمالك ، أو بين صاحب الماء والمزارع[3] . أما إذا كان الاتفاق على شيء واضح معلوم ، في مثل استئجار الأرض البيضاء من السنة الى السنة ، أو في آجال يتفق عليها بالذهب والفضة ، أي بالدنانير والدراهم ، فقد جـــاز كذلك كما ورد في كتب الحديث[4] .

المساقاة :

وكما مارس أصحاب الأملاك والمزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمزارعة ، مارسوا (المساقاة) كذلك . وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهم بتوجيه الماء إلى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج إلى ماء مقابـــل تعهد يقدمه الطرف الثاني إلى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عين وما شابه ذلك ، مقابل ذلك المـــاء . وذكر ان المساقاة ، أن يستعمل رجلاً في نخيل أو كرم ليقوم باصلاحها مقابل أن يكون له سهم معلوم مما تغله.وأهل العراق يسمونها معاملة[5] . وذكر العلماء ان أهل المدينـة كانوا يقولون للمساقاة المعاملة ،

---

١ ارشاد الساري (٤/١٨٧ وما بعدها) .

٢ عمدة القارىء (١٢/١٨٣) ، شرح النووي ، (٦/٤٠٠) ، (حاشية على ارشـــاد الساري) .

٣ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .

٤ تاج العروس (١٢/١٨٤) .

٥ تاج العروس (١٠/١٨٠) ، (سقى) ، (٨/٣٦) ، (عمل) ، اللسان (١١/٤٧٦) .

وللمزارعة المخابرة ، وللإجارة بيع ، وللمضاربة مقارضة ، وان لهم لغات اختصوا بها[1] .

وقد يخصص الماء كله بالزرع ، أي يكرى كله لمؤجره ، وقد يكرى لما يسد حاجة الزرع ، أي لإرواء الزرع الذي اتفق على إسقائه بالماء ، في كل وقت ، في النهار أو في الليل ، وفي أي لحظة يشاء المستأجر لذلك الماء . وقد يكون على حظ من الماء ، مثل ربع يوم أو ليلة ، أو يوم معين ، أو وقت يثبت . ويقال لهذا الماء (ربيع) ، أي حظ[2] .

وطالما وقعت الخصومات بين المزارعين بسبب اختلافهم على الماء . فالماء هو رأس مال المزارع ، فإذا انقطع عن زرعه ، تأثر زرعه ، وتعرض للهلاك ، وزرعه هو رأس ماله وحياته . ومن هذا القبيل الخصومات التي تقع بسبب اشتراك جملة مزارعين في مورد ماء واحد ، ومحاولة كل واحد منهم الحصول على أكبر مقدار من الماء ، أو أخذه قبل غيره . والخصومات التي تقع من سيل الماء في الشرائج . والجداول التي تمر في عدة مزارع والينابيع والعيون التي تروي جملة أحواط ومحاقل . وقد أشير إلى جملة أنواع من هذه الخصومات في كتب الحديث[3] .

ومن عادة أهل (يثرب) أنهم كانوا يكرون الأرض ، لأجل قصير أو لأجل طويل . فإذا كان الأجل طويلاً فربما غرسوا شجراً ، على نصيب معلوم من الثمر ، وذلك لأن أكثرهم لم يكونوا يملكون كثيراً من الذهب والفضة ، فكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الأرض . ولما جاء المهاجرون زارعوا الأنصار بالشكر على الثلث والربع ، حتى ما كان بالمدينة بيت هجرة ، إلا وزرع على الشطر[4] ، أو على التبن أو على أوسق من تمر أو برّ أو غير ذلك. وكرى بعضهم أرضه بالدراهم والدنانير وبالفضة وبالذهب . وقد أشير الى ذلك في كتب الحديث[5].

---

١ جامع الاصول (١١/١٧٢) ، شرح النووي (٦/٤٠٦ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٣٤٢) ، (ربع) .
٣ عمدة القارىء (١٢/١٨٨ وما بعدها) ، (كتاب المساقاة) .
٤ ارشاد الساري (٤/١٧٦ وما بعدها) .
٥ ارشاد الساري (٤/١٨٨ وما بعدها) .

اكراء الأرض :

واكراء الأرض ، بمعنى إيجار أرض ما لمدة معينة محدودة ، أو بدون حد بشروط وفي مقابل بدل . ويقال لهذا البدل الذي يدفع عن ثمرة استغلال الأرض أو أي كراء (اثوبت) ، أي (الثواب) (ثواب) . ثواب أجر الانتفاع من الشيء الذي أجر . وقد يكون هذا الشيء أرضاً وقد يكون داراً وقد يكون حيواناً . فورد في بعض النصوص العربية الجنوبية ان اختين استأجرتا أرضاً على ساحل نهر (عبرت) ، وبقراً لتقوما بإيجارها الى الفلاحين لاستغلالها بزرعها ، وبتنمية البقر بشروط معينة تنتهي بأجل نص عليه ، في مقابل بدل ايجار (اثوبت) يدفع الى أصحاب المال . وقد أشير في الكتابة الى أن الإلـه (المقه) ، قد وافق على العقد وباركه[1] . ومعنى ذلك أن العقد عقد شرعي وقد سجل رسمياً وصار عقداً معترفاً به قانوناً من الحكومة ومن المعبد .

ويراد بلفظة (عبرت) ، لفظة (عبرة) و (العبرة) في لغتنا . والعبرة شاطىء النهر وناحيته ، قال النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر :

وما الفرات إذا جاشت غواربه ترمى أواذيه العبرين بالزبد
يوماً بأطيب منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد[2]

وورد في أحد النصوص ، ان ناساً (ادم) ، استأجروا أرضاً من الآلهة ، على أن يدفعوا أجرها سنة بعد سنة ، وحسبما اتفقوا عليه مع الآلهة[3] ، مما يدل على ان هذه الأرض المؤجرة هي من أوقاف المعبد . وقد أجرها أولئك الناس ، من رجال الدين الذين بيدهم أمر حبوس الآلهة .

ومن حق المؤجر ، أي المالك إبطال العقد ، إذا أخل المستأجر بشرط العقد أو أظهر كسلاً وتباطؤاً أو عدم مبالاة في استغلال الشيء المؤجر[4] . ويعني هذا ان

---

١ Glaser 862 = CIH 290, 1064, 1572, Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH, 99, Grohman, 126, Handbuch, I, S. 124.

٢ تاج العروس (٣/٣٧٦) ، (عبر) .

٣ Halevy 49, SD 13, Glaser 131, CIH 99, Grohmann, S. 126.

٤ Grohmann, S. 126, SD 21.

الاتفاق كان على دفع نصيب معين من الغلة أو من ثمرة العمل . وبما ان هذا النصيب متوقف على مقدار الجهد الذي يبذل في استغلال الملك المؤجر ، بحيث اذا زاد ، زاد نصيب المؤجر عن ايجار ملكه ، وإذا قلّ ، قلّ نصيبه أيضاً ، ومن حيث ان من مصلحة المؤجر ان يزداد وارد (اثوبت) ملكه ، لذلك صار من حقه إبطال العقد ، إذا رأى تهاوناً في تطبيق ما جاء فيه .

وقد كان أهل الحجاز ، يكرون أرضهم ، يكرونها بالثلث والربع والطعام المسمى وبالذهب وبالوَرِق . وكانوا يدفعون الأرض إلى من يزرعها ببذر من عنده على أن يكون لمالك الأرض ما ينبت على مسايل الماء ورؤوس الجداول أو هذه القطعة والباقي للعامل . وقد نهى رسول الله عن أكثر أنواع هذه الكراء ، ذكر انه قال : « من كانت له أرض فليزرعها ، فإن لم يزرعها فليمنحها أخاه ، فإن لم يمنحها أخاه فليمسكها »[1] .

بيوع زراعية :

وتضطر الظروف الاقتصادية المزارعين الى بيع الثمار وخضر البقول قبل بدو صلاحها ،وقد يفعلون ذلك تخلصاً من معاملات جني الثمر وحراسته من اللصوص، وحمله الى الأسواق ، وأمثال ذلك من معاملات تحتاج الى مال وجهد . ويقال لذلك (المخاضرة) . وقد عرفت بأنها بيع الثمار قبل بدو صلاحها ، سميت بذلك لأن المتبايعين تبايعا شيئاً أخضر بينهما ، مأخوذ من الخضرة ، ويدخل في ذلك بيع الرطاب والبقول وأشباهها[2] . فكان صاحب الأشجار والمزرعة يبيع ثمار زرعه لغيره ، فيبيع الثمار قبل أن تطعم ، ويبيع الزرع قبل أن يشتد ويفرك منه . وقد نشأت عن هذا البيع خصومات ومنازعات بسبب وقوع عاهات في الحاصل ، تفسد على المبتاع ربحه ، فيطلب عندئذ من البائع استرجاع ما دفعه له كله أو بعضه ، وتقع عندئذ الخصومات . وقد بقيت سنتهم على ذلك حتى مجيء الرسول الى المدينة ، فكانوا يأتونه للمقاضاة ، فوقع النهي منه على هذا النوع من البيوع،

---

١ صحيح مسلم (٥/١٨ وما بعدها) ، « باب كراء الارض » .

٢ تاج العروس (٣/١٨٠) ، (خضر) .

ولم يسمح به إلا أن يبدو صلاح الثمر ، فيتبين صلاحه ونوعه . وعندئذ لا يحق لمبتاع التذمر من شرائه ، لأنه شاهد ما ينوي شراءه ورآه ، فلا غبن فيه[1] .

ومن بيع المخاضرة شراؤها مغيبة في الأرض ، كالفجل ، والبصل،واللفت ، والثوم وشبهه ، وللفقهاء في ذلك جملة آراء[2] .

وورد ان (المحاقلة) نوع من البيوع . وهي بيع الطعام في سنبله بالبر ، وقيل اشتراء الزرع بالحنطة . وقد نهي عنها في الاسلام[3] .

ومن أنواع البيوع التي تعرض لها الفقهاء (المزابنة) . وهي بيع الثمر في رؤوس النخل بالتمر كيلاً ، وبيع الزبيب بالكرم كيلاً . وذكر بعض العلماء ان المراد بذلك بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر ، وبيع العنب بالزبيب ، وبيع التمر في رؤوس النخل بالتمر . وذكر أيضاً ان من المزابنة بيع التمر بكيل جزاف ، وكل تمر بيع على شجره بتمر كيلاً ، وقد نهي عنه في الحديث لأنه بيع مجازفة من غير كيل ولا وزن . وقد نهي عنه لما يقع فيه من الغبن والجهالة. وذكر ان المزابنة كل جزاف لا يعرف كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود . أو هو بيع معلوم بمجهول من جنسه ، أو هو بيع مجهول بمجهول من جنسه ، أو هو بيع المغابنة في الجنس الذي لا يجوز فيه الغبن، لأن البيّعَين إذا وقفا فيه على الغبن ، أراد المغبون أن يفسخ البيع وأراد الغابن أن يمضيه فتزابنا فتدافعا فاختصما[4] .

جمعيات زراعية :

ويظهر من بعض الكتابات ان بعض المقاطعات الزراعية كانت في ادارة مجلس يتألف من ثمانية أشخاص عرفوا بـ (ثمنيتن) ، أي (الثمانية) ، أداروا شؤون المقاطعة من إشراف على العمل ، ومن ادارة لأمور الزروع ، ومن تهيئة للبذور وما يحتاج اليه الزرع ، ومن دفع حصص الحكومة والمعبد ، ومن خزن وبيع

---

١ عمدة القارىء (١٢/٢ وما بعدها) .
٢ عمدة القارىء (١٢/١٤) .
٣ ارشاد الساري (٤/١٨٠) .
٤ عمدة القارىء (١١/٢٩٠ وما بعدها) ، (١٢/١٣ وما بعدها) ، القاموس (٤/٢٣٠) ، تاج العروس (٩/٢٢٤) ، (زبن) .

وتصريف[1] . فهم هيأة مجلس زراعي لمشروع تعاوني يضم أهـل تلك المقاطعة ، واجبهم تمشية أمور هذه المؤسسة الزراعية والاشراف عليها ، واعطاء كـل ذي حق حقه ونصيبه في هذه الجمعية الزراعية التعاونية .

ويظهر ان شيئاً من التخصص ، كان قد وجد في هذه الجمعيات ، فعهدت أمر الادارة إلى رجل عرف بـ (سمخض) ، كان بمثابة مدير للجمعية ، واجبه الاشراف على الأرض التي أوكل أمر ادارتها اليه. أما وظيفته،فعرفت بـ (سمخضت) أي ادارة أرض أو ادارة مقاطعة ، أو (ادارة) بتعبير أصح .

وعرف من تولى أمر جبايـة الضرائب والاشراف على الموظفين الذين يوكل أعمال الجباية اليهم ، بـ (نحل) ، ويقال لوظيفته (نحلت)[2] . ولا استبعـد أن تكون (نحلت) ، جماعة جمعت بين أعضائهـا روابط فكرية واقتصادية . فتعاونت فيما بينهـا على العمـل معاً والاشتراك في استغلال حاصل هذا العمل . ودليل ذلك أننا نجد معاجم اللغة تفسر (النحلة) بالديانة[3] ، ولهذا التفسير صلة بما ذهبت اليه من معنى للفظة (نحلت) ، وعلى ذلك يكون الـ (نحل) رئيساً للنحلة ، يشرف عليها ويدفع بالنيابة عنها حق الحكومة والمعبد .

وقد ورد في أحـد النصوص أن جمعية من هذه الجمعيات الثماني ، كانت تدير أرضين في ضواحي مدينة (هرم) . وقد نعت أعضاؤها بـ (ابعل) ، أي سادة ورؤساء[4] . فهم سادة هذه الجمعية وأصحاب الارادة فيها .

الهروب من الأرض :

وقد جابهت حكومات العربية الجنوبية المشكلة التي تجابه كل حكومة . مشكلة هرب المزارعين من الأرض والالتجاء الى المدن . ففي بعض نصوص المسند الخاصة بالزراعة نجد تهديداً للمزارعين الذين يفرون من المزارع ويجلون عنهـا ، فيلحقون بذلك الأذى بالزراعة وبالحاصل . والواقع أن حياة الفلاح في المزرعة كانت صعبة

---

١ النص الموسوم بـ Halevy 147

٢ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 56, Hartmann, Arab. Frage, S. 208, 401, Rhodokanakis, Stud. Lexi., II,S. 67.

٣ تاج العروس (١٣٠/٨) ، (نحل) .

٤ راجع السطر الاول من النص الموسوم بـ : Halevy 147.

قاسية ؛ فلا يكاد دخل الفلاح يكفيه مؤونته ومؤونة عياله ، ولا سيما أيام الشدة حين يقل الزرع أو يتعرض للتلف لعوامل عديدة ليس في طاقة الفلاح مكافحتها، فضلاً عن الضرائب الباهظة التي عليه أن يدفعها الى صاحب الأرض والحكومة والمعبد . فلاذ بأذيال الهرب من الأرض الى المدن للاشتغال فيها ، بالرغم من تشديد الحكومة في منع الهجرة وترك المزارع من غير موافقة أصحاب الأرض . وقد عرف الهارب من الأرض والمجلي عنها بـ (مهسجلت) في نصوص المسند[1] .

ويقال للأرض التي يهاجر المهاجر اليها ، وللمكان الذي يفر اليه المزارع من الحضر ليجد فيه رزقاً يبحث عنه (مهجرت) في لغة المسند . أي (المهجرة) ، بمعنى : (المهجر)[2] .

العمري والرقبي :

ومن عقود أهل الجاهلية : (العمري) و (الرقبى) . والعمري ما يجعل لك طول عمرك أو عمره ، أو هو أن يدفع الرجل الى أخيه داراً ، فيقول له : هذه لك عمرك أو عمري أينا مات دفعت الدار الى أهله . وقد عمرته اياه وأعمرته جعلته له عمرة أو عمري ، أي يسكنها مدة عمره ، فإذا مات عادت الي[3] . و(الرُّقبى)[4] أن يعطي الانسان انساناً ملكاً كالدار والأرض ونحوهما ، فأيهما مات رجع الملك لورثته . أو ان يجعله لفلان يسكنه ، فإن مات ففلان يسكنه ، فكل واحد منهما يرقب موت صاحبه . وقد أرقبه الرقبى ، وأرقبه الدار جعلها له رقبى[5] . وللفقهاء كلام في الاثنين[6] .

ويكون (العمري) و (الرقبى) في الأرض كذلك ، كأن يعطي الرجل رجلاً أرضاً يستغلها طول حياة أحدهما ، فأيهما مات طبقت بحق الأرض ما اتفق عليها من شروط . وقد كانوا يفعلون ذلك بالنسبة للأقرباء والأصدقاء والمقربين لمساعدتهم .

---

١ السطر التاسع والعاشر من النص : REP. EPIGR. 4646

٢ Halevy 147, Rhodokanakis, Stud. Luxl., I, S. 57.

٣ ارشاد الساري (٤/٣٦٤) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

٤ كبشرى

٥ تاج العروس (١/٢٧٥) ، (رقب) .

٦ ارشاد الساري (٤/٣٦٤ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٤٢١) ، (عمر) .

العرية :

العرية النخلة المعراة . وأعراه النخلة وهب له ثمر عامها[1] . والعرية أيضاً التي تعزل عن المساومة عند بيع النخل ، والتي يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً ، وأن يشتري الرجل النخل ثم يستثني نخلة أو نخلتين ، يقال أعرى فلان فلاناً ثمر نخلة ، إذا أعطاه إياها يأكل رطبها ، وليس في هذا بيع ، وإنما هو فضل ومعروف . فالعرية اذن النخلة عزلتها من المساومة ، والإعراء أن تجعل ثمرتها لمحتاج أو لغير محتاج عامها ذلك ، وقد رخص الرسول في العرايا ، وللفقهاء كلام في ذلك[2] .

---

١ قال سويد بن الصامت الانصاري :

ليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح

اللسان (١٥/٤٩) ، (عرا) .

٢ اللسان (١٥/٥٠) ، (عرا) .

الفصل الثامن والتسعون

الحياة الاقتصادية

وأقصد بالحياة الاقتصادية كل ما يتعلق بمفهوم الاقتصاد من معنى ، ما يتعلق منه بالحكومة أو ما يتعلق منه بالشعب . وما يتعلق منه بالتجارة والمال ، أو ما يتعلق منه بالزراعة أو بالصناعة والحرف .

واقتصاد أية أمة ، حاصل أمور عديدة : الجو ، من حر وبرد ، ومن مطر وجفاف ، ومن ثروات طبيعية ، تستنبط من الماء أو التربة ، ومن نشاط وجهد وظروف اجتماعية ، هي من حاصل تأثير المحيط في أهله .

وأدخل هنا في الحياة الاقتصادية ما يشمل التجارة بنوعيها تجارة البر وتجارة البحر ، وما يشمل الزراعة ، ثم ما يشمل الحرف والصناعات .

وتشمل التجارة : الاتجار داخل جزيرة العرب ، أي تعامل أبناء بلاد العرب بعضهم مع بعض ، والاتجار مع الخارج ، أي مع الحكومات الغريبة مثل الهند وحكومات افريقيا والفرس والروم .

لقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون في عالم التجارة . والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التي لم ينظر العربي اليها والى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص . بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة . ونظر الى التاجر نظرة تقدير وتجلة ، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف ، فيها من الحيل والخداع واللعب على الناس ما في أية حرفة أخرى

وفيها عمل وجهد على نحو ما نجد في الزراعة أو في الصناعة . ولكنها نظرة واجتهاد الى الحياة ، وظروف طبيعية ، جعلت العرب تجاراً في الغالب ، فشرفوا التجارة على غيرها من الحرف ، وقدموها عليها في المنازل والدرجات . وقد بقيت على هذه المنزلة والدرجة في الإسلام كذلك . وأشير الى شرفها وسمو منزلتها في كتب الحديث ، مما يدل على ما كان للتجارة من منزلة في نفوس الناس .

والتاجر الذي يبيع ويشتري . ومن المجاز التاجر الحاذق بالأمر ، لما تحتاجه التجارة من ذكاء وحذق في مساومات البيع والشراء . وذكر علماء اللغة ان العرب تسمي بائع الخمر تاجراً ، وان أصل التاجر عندهم الخمّار ، يخصونه من بين التجار[1] . والتجارة صناعة التاجر ، وهو الذي يبيع ويشتري للربح[2] . و (التاجر) هو (مكر) في لغة المسند ، و (تمكرو) في الآشورية[3] .

كان الملوك تجاراً يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبد تجاراً يتاجرون باسم معابدهم ، ويكسبون من الضرائب التي تقدم للمعابد كسباً فاحشاً ، وكان أصحاب الأملاك ورؤساء العشائر تجاراً كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم في المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية في نظر تجار ذلك اليوم ، لبيعه في الداخل أو نقله الى بلاد الشأم أو العراق لتصريفه في أسواق تلك الجهات .

وفي اللهجات العربية ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة وبالتعامل ، وهي من اللغات العالمية الغنية في هذه المادة . ويلاحظ بصورة عامة ان اللهجات السامية غنية كلها تقريباً بالألفاظ المستعملة في البيع والشراء والتعامل والتجارة ، وفيها مترادفات كثيرة في هذا الباب. وكثرة هذه الألفاظ دليل على حذق الساميين عموماً بالتجارة وافتتانهم بها ، وعلى وجود عقلية تجارية لديهم . والتأريخ يؤيد ذلك ، فترى الساميين عموماً ، وهم أنشط من غيرهم ، يتنقلون من مكان الى مكان طمعاً في ربح ، وركضاً وراء تجارة ، وهم من أحذق الناس يومئذ في التحكم في الأسعار وفي التعامل وفي البيع والشراء .

---

١ تاج العروس (٣/٦٦) ، (تجر) .
٢ ارشاد الساري (٤/١٣) .
٣ Grohmann, S. 124.

وفي القرآن الكريم لفظة (تجارة) و (تجارتهم) ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتجار والتجارة والمعيشة والكسب . كما أن فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت . وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع و « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1] . وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين . بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب ، والتأجيل والتعجيل ، وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر ، الذي يعي الناحية المادية من ربح وخسارة وكسب وتوفير ، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيراً ، لأنها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي .

والتجارة أنواع كثيرة ، تشمل كل أنواع البيع والشراء . والتاجر ، هو الذي يتاجر في الأسواق . غير أن منهم من تخصص في نوع خاص من أنواع التجارة مثل بيع الحبوب ، وقد يتخصص ببيع نوع خاص من الحبوب ، مثل الحنطة ، فيقال له : (حنّاط) وحرفته (الحناطة)[2] . وقد يتخصص ببيع وشراء (البز) ، فيقال له (البزاز) وحرفته (البزازة)[3] . وقد يتخصص ببيع (الزيت) ، فيقال لبائعه (الزيات) وللذي يعتصره (الزيات) كذلك[4] .

وتكون التجارة بالمقايضة ، وهي المعاوضة ، اذا عارض التاجر أو أي شخص متاعاً بمتاع آخر ، وبادل سلعة بسلعة أخرى[5] . وهي الطريقة القديمة في الاتجار ، قبل ان يتعامل بالذهب والفضة وزناً ، في تقييم قيم الأشياء ، وقبل ان تعرف النقود ، التي ولدت من التعامل بالذهب والفضة . وطريقة المقايضة أو المبادلة أو المعاوضة ، لا تزال طريقة قائمة معروفة ، تتبعها الدول ، في تصريف منتجاتها بمنتوجات أخرى عوضاً عن النقد ، لحاجتها الى النقد والى تصريف حاصلاتها

---

١ سورة المطففين ، الآية ١ وما بعدها .
٢ تاج العروس (١٢١/٢) ، (حنط) .
٣ ارشاد الساري (١٣/٤) ، تاج العروس (٨/٤) ، (بزز) .
٤ تاج العروس (٥٤٧/١) ، ، (زيت) .
٥ تاج العروس (٨١/٥) ، (قيض) .

الفائضة عليها . وقد اتبع الجاهليون هذه الطريقة ، فكانوا يبادلون الجلود بسلع أخرى ، ويبادلون التمر بالحنطة[1] . وقد اتبع الجاهليون طريقة التعامل بالذهب والفضة وزناً كذلك ، كما تعاملوا بالنقود .

ويتبين لنا من دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير انه كان لأهل مكة عرف وضعوه في أصول التجارة يمكن ان نسميه (قانون التجارة) بالنسبة لأهل تلك المدينة ، تكوّن من تجاربهم في الاتجار ومن تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومن تجاربهم وتعاملهم مع الخارج ، مثل تعاملهم مع الفرس والروم والحبش ، حيث أخذوا من هؤلاء الأعاجم النظم والقواعد التجارية التي كانوا يسيرون عليها والتي لم تكن معروفة عند أهل مكة ، بسبب اختلاف المحيط وطريقة التعامل التجاري بين الدول . فتجار مكة وأصحاب المال ، هم الذين وضعوا أصول التعامل في التجارة فيما بينهم ،وهم الذين كوّنوا بأنفسهم قوانينهم ، إذ لا حكومة منظمة لهم تضع التشريع وتقوم بالتنفيذ على نحو ما كان في العربية الجنوبية أو عند الفرس أو الروم .

ويتبين لنا من دراسة الموارد المذكورة كذلك ، أن أهل مكة كانوا خبراء في أصول تنمية الأموال وفي كيفية استثمارها واستغلالها . فكانت لهم مرابحات وكانت لهم شراكات وتعامل ومراسلات مع غيرهم من أصحاب المال في مختلف أنحاء جزيرة العرب ، وكان لهم ربا ، للحاجة ، أي للشدة والعسر والضيق . أو للتعامل بالمال المقترض بالربا لانمائه في مشاريع اقتصادية تعود بالفائدة على المقترض أكثر من فائدة الربا التي يدفعها للمرابي ،حتى ظهر في مكة أناس كانوا يعدّون من كبار الأغنياء بالنسبة لأهل تلك المدينة وبالنسبة لجزيرة العرب في ذلك الوقت.

وفي المسند ألفاظ كثيرة ذات معاني تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك والعقود وهي دليل على أن العرب الجنوبيين كانوا قوماً تجاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ، ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون في الداخل والخارج ،يقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما يقيمون الأسواق في بلادهم في المواسم أو في أيام معينة من الاسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم

---

١ تقويم البلدان (٩٩) .

بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضة بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

والتجارة هي (ش ت ي ط) (شتيط) في لغة قتبان . وقد وردت هذه اللفظة في عدد من النصوص القتبانية ، في أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة وتنظيم الجباية ، وفي كيفية جباية (المكس) عن البضائع التي تباع في الأسواق، وفي العقوبات التي تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع جباية السوق . وقد حددت القواعد التي يسمح بموجبها للغرباء في الاتجار بأسواق مملكة قتبان ، وفي كيفية اتجار القتبانيين في الأسواق الخارجية .

وفي جملة هذه النصوص نص أصدره الملك (شهر هلال بن يدع اب) (شهر هلل بن يدع اب) في تنظيم التجارة وفي كيفية الاتجار . وقد نشر على شكل اعلان أو مرسوم ملكي موجه من الملك الى التجار من أهل قتبان ، والى الغرباء الوافدين عليها للاتجار ، وقد كتب ونشر ليطلع عليه الناس كما تفعل الدول في الوقت الحاضر .

وقد وردت في النص جملة مصطلحات وألفاظ ، لها معان تجارية ، مثل (يشط) أي يتاجر ، و (يعرب) من (عرب) بمعنى يقدم عربوناً ويضع عربوناً[1] . ومن أصل (عرب) العرابة والعربون في العربية الشمالية[2] . و (خدر) بمعنى أقام ومقيم ومقيمين ونازلين . وقد ورد في المعجمات اللغوية ان من معاني هذه اللفظة الاقامة بالمكان[3] . ويُقصد بذلك النازلون في مكان ما . ولما كان هذا النص أمراً وقانوناً في تنظيم التجارة ، فقد حدد ما جاء فيه من أوامر ، بالنسبة الى سكان المدينة (تمنع) وخارجها ، وكذلك مملكة قتبان ، والمقيمين بها ، والوافدين من خارج قتبان للعمل بالأسواق والاتجار . ولذلك وردت هذه الجملة: « ومن يتجر تجارة بتمنع وبخارج تمنع ، فعليه ان يقدم عربوناً الى تمنع ، وان يكون مقيماً بشمر ، وإن آثر قتبان محلاً لاتجاره ، وأراد ان يتجول ليشتري ، فعليه أن يشتري من شمر ... » . فحدد بذلك كيفية الاتجار وحق الاتجار والموضع

---

١ راجع السطر الثامن من النص : REP. EPIGR. 4337.

٢ القاموس (١/١٠٢) ، تاج العروس (٣/٣٣٣ وما بعدها) ، « الكويت » ، (٣/١٧٠ وما بعدها) ، (خدر) .

٣ القاموس (٢/١٨) .

الذي يجب ان يشترى منه بالنسبة الى تجار قتبان والى التجار الغرباء عن تمنع .

وقد حدد هذا القانون حقوق الـ (خدر) ، أي التاجر النـازل والمقيم في إمارة (شمر) ، والذي يتجول فيذهب الى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها، ويذهب الى قبائلها لبيع ما عنده اليها أو لشراء ما يحتاج اليه من تجارة منهـا ، وعليه أن يفعل ذلك ، ولكنه ملزم بأخبار (عهر شمر) ، بذلك ، وذلك لتسوية المشكلات والحسابات التي تتـولد من المعاملات التجارية . وقد تطرق النص الى الأضرار التي قد تصيب الأجانب أو القتبانيين ، والى احقاق الحقوق ، ولهـذا وضع الملك هذا الأمر . وجاءت في آخر النص هذة الجملة : « وخمسي ورقم » أي « خمسين ورق » . وقـد سقطت كلمات قبلها ، فلم يعرف المراد من ذكر هذا الرقم ، أقصد وضع تأمينات بهذا القدر المذكور ، أم قصـد جزاءً يفرض على المخالفين ، أو غير ذلك .

وهذه القوانين القتبانية ،هي من أقدم وأشهر القوانين التي وصلت الينا باللهجات العربية القديمة في كيفية تنظيم الاتجار والتعامل في السوق وفي تعيين حقوق الحكومة ونصيبها من الأرباح المتأتية من التجارة.وهي دليل ناطق على مقدار عناية القتبانيين بأمور التجارة بالنسبة لذلك الوقت .

التجارة البرية :

والتجارة البرية ، هي عمـاد تجارة الجاهليين ، ولا سيما الجاهليين القريبين من الاسلام وسندهم الأول في رخائهـم وفي كسب ثرواتهم . وعمـاد هذه التجارة وسندها القوافل . فقـد كان الملوك وسادات القبائـل والأشراف يرسلون تجارتهم بقوافل الى مواضع اتجارهم ، فتبيع ما تحمل وتشتري ما تحتاج اليه من تجارة ، لتبيعها في مكان آخر بثمن غال ؛ وبكسب أصحاب هذه القوافل كسباً حسناً من هذا الاتجار .

والتجارة البرية : إما تجارة داخلية ، أي داخل قطر من أقطار جزيرة العرب وبين أقطارها ، وإما تجارة خارجية ، كانت تتم مـع بلاد الشأم والعراق ، أي خارج حدود جزيرة العرب في اصطلاح الجغرافيين المسلمين .

وقد أشير في التوراة وفي الكتابات الآشوريـة والمؤلفات اليونانية واللاتينية إلى

اتجار العرب مع الخارج ، كما أشير إلى اتجار الآشوريين والفرس والرومان والروم مع العرب ، وإلى طمع الدول الكبرى لعالم ذلك الوقت في جزيرة العرب ، نظراً لما كانوا يسمعونه عن ثرائها وغناها ، ولموقعها الجغرافي المهم الذي يقع بين افريقية وآسية ، ويهيمن على المياه الدافئة ذات المنافع الكبيرة بالنسبة للتجارة العالمية في كل وقت وزمان .

والعربية الجنوبية في كتب اليونان والرومان وفي التوراة، بلاد غنية ذات خيرات وثروات وتجارات وأموال ، قوافلها تخترق جزيرة العرب الى بلاد الشأم والعراق، وفي بلادها الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، تتاجر مع الخارج فتربح بتجارتها هذه كثيراً ، وبذلك اكتنزت المعادن الثمينة المذكورة والأموال النفيسة حتى صارت من أغنى شعوب جزيرة العرب .

وفي (المزامير) أن (شبا) ستعطي (الذهب) لملك العبرانيين في جملة الشعوب التي ستخضع له ، تقدم له الجزية[1] . وورد في (أرميا) أن (شبا) كانت ترسل (اللبان) الى اسرائيل[2] . وقد ذكروا في سفر (حزقيال) في جملة كبار التجار . كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب[3] . وأشير في (أيوب) الى قوافل (شبا) التي كانت تسير نحو الشمال حتى تبلغ اسرائيل[4] .

وفي هذه الاشارات دلالة على الصلات المستمرة التي كانت بين العبرانيين والسبئيين ، وعلى أن السبئيين كانوا هم الذين يذهبون الى العبرانيين ، يحملون اليهم الذهب والأحجار الكريمة والطيب واللبان . فتبيع قوافلهم ما عندها في أسواق فلسطين ، ثم تعود حاملة ما تحتاج اليه من حاصلات بلاد الشأم ومصر وفلسطين .

ويظهر من سفر (يوئيل) ان السبئيين كانوا يشترون السبي من فلسطين ، من (بني يهوذا) ، حيث جاء فيه تهديد لأهل صور وصيدا بأن رب اسرائيل سينتقم منهم جزاء اعتدائهم على الاسرائيليين ونهبهم ذهبهم وفضتهم . وسيجعلهم عبيداً يباعون في الأسواق إلى السبئيين : « وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا

---

١ المزامير ، المزمور الثاني والسبعون ، الآية ١٥ .
٢ أرمياء ، الاصحاح السادس ، الآية ٢٠ .
٣ حزقيال ، الاصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢٢ وما بعدها .
٤ أيوب ، الاصحاح السادس ، الآية ١٩ .

تبيعونهم للسبئيين ، لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم » . مما يدل على انهم كانوا من المشترين للرقيق ، ينقلونه الى بلادهم للاستفادة منهم في مختلف نواحي الحياة، يتخذون النساء الجميلات زوجات لهم ، ويتخذون البشعات والقويات للخدمة ، ويعهدون للرجال بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى ذكاء ومهارة وفن واتقان،وبأعمال أخرى صناعية وزراعية ، وأمثال ذلك .

وقد أشير الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة في بعض الكتابات الآشورية ، فذكر (تغلاتبليزر) الثالث مثلاً أنه أخذ الجزية من السبئيين،أخذها ذهباً وفضة وإبلاً : جمالاً ونوقاً ولباناً وبخوراً من جميع الأنواع ، كما ذكر (سرجون) أنه أخذ الجزية من (يثع أمر) ملك سبأ ، أخذها ذهباً وخيلاً وجمالاً ومن مصنوعات الجبال[1] .

وقد سبق لي أن تحدثت عن هذا الموضوع في أثناء حديثي عن صلات الآشوريين مع العرب ، وعندي أن هذه الجزية التي دفعت الى الآشوريين ، قد تكون جزية بالمعنى المفهوم من اللفظة ، أي نتيجة قهر وإكراه وخضوع لحكم الآشوريين وهزيمة لحقت بالسبئيين في حرب أو حروب وقعت مع الآشوريين ، وقد تكون بمعنى ضريبة دفعها السبئيون الى الآشوريين في مقابل السماح لهم بالاتجار في أسواق الحكومة الآشورية،فهي ضرائب يدفعها التجار أو تدفعها الحكومات الى الحكومات الأخرى في مقابل السماح لها بالاتجار معها ، وفتح أبواب أسواقها لرعاياها ، للبيع والشراء .

وفي كتب اليونان واللاتين تأييد واتفاق تام مع ما جاء في التوراة عن ثراء السبئيين ، وعن امتلاكهم الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وقد بالغت في ذلك مبالغة أخرجتها من حدود الواقع الى الخيال . فنسبوا لهم استعمال الأثاث المصنوع من الذهب والأواني المستعملة من الذهب والفضة ، وغير ذلك مما أخرج وصفهم من حدود المعقول وأدخله في عالم القصص والأساطير .

وقد بالغ (سترابو) في وصف ثراء السبئيين بسبب اتجارهم بنوع من العطور الزكية ، دعاها باسم (اللاريم) Larimum وبالمواد الأخرى النفيسة ، وذكر انه كانت « لديهم كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة ، كالأسرّة والموائد

---

١ Hastings, p. 842.

الصغيرة ، والآنية والكؤوس ، أضف اليها فخامة منازلهم الرائعة ، فإن الأبواب والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة »[1] .

وقد كانت هذه الشهرة من أهم العوامل التي دفعت بالقيصر (أغسطس) إلى ارسال حملته المشهورة المخفقة على اليمن . وهاك ما كتبه المؤرخ (بلينيوس) Pliny عن ثروة العرب وعن تجارتهم ، لترى ما كان ماثلاً في مخيلة الرومان واليونان عن العرب . قال : « ومن الغرابة ان نقول : إن نصف هذه القبائل التي تفوق الحصر ، يشتغل بالتجارة ، أو يعيش على النهب وقطع الطرق . والعرب أغنى أمم العالم طراً ، لتدفق الثروة من روما وبارثيا اليهم ، وتكدسها بين أيديهم . فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم . ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك »[2] .

وقد أشار (بلينيوس) إلى ان المعينيين كانوا يملكون أرضاً غنية خصبة ، يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وان السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأرضين المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل . كما كانوا ينتجون العطور[3] .

وقد عدّ (سترابو) العسل في جملة المحصولات التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وذكر انه كثير جداً فيها[4] .

وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع بلاد الشأم ، فيرسلون اليها قوافلهم مارة بالحجاز الى أسواق بلاد الشأم بالطرق البرية التي لا يزال الناس يسلكونها حتى اليوم مع شيء من التحوير والتغيير . وقد عثر على كتابة دوّنها كبيران شكرا فيها الإلٰه (عثتر) ، لأنه نجاهما مع قافلتهما من الحرب التي كانت قد وقعت بين (مصر) وبين (مذي) ، فوصلا معها سالمين الى مدينة (قرنو) ، أي

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٢) ، (١٩٥٢) .
٢ مجلة المجمع العلمي العراقي (ج ١ م ٣ ص ١٢٩) .
٣ مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الاول : المجلد الثالث) ، (١٩٥٤ م) (ص ١٣٩) .
٤ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٤٧) .

عاصمة (معين) . وقد ورد أنهما كانا يتاجران مع (مصر) و (الاشر)، أي (آشور) ، و (عـــبر نهرن) (عبر نهران)[1] . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن هذه الكتابة تشير الى حرب وقعت فيما بين السنة (٢٢٠) والسنة (٢٠٥) قبل الميلاد . أي في عهد (البطالمة) ، وأن تلك الحرب كانت بين (الميديين) الذين أشير اليهم بـ (مذى) وبين (البطالمة) الذين أشير اليهم بـ (مصر)، لأنهم حكام مصر ، أو الحرب التي وقعت فيما بين (السلوقيين) وبين (البطالمة)، والتي أدت الى الاستيلاء على (غزة) سنة (٢١٧) قبل الميلاد . وقد كان العرب الجنوبيون يتاجرون مع هذه المدينة التي تعتبر الميناء الذي يؤدي بالتجار الى موانىء مصر[2] .

وقد كانت (البتراء) أي (سلع) Sela ، أهم عقدة طرق يمر بها المعينيون والسبئيون . ومنها يتجه طريق نحو البحر الميت ، لمن يريد الاتجار مع بلاد الشأم وطريق آخر ينتهي بغزة ، لمن يريد الاتجار مع هذا الميناء المهم ، الذي بقي العرب يتاجرون معه الى أيام الرسول . وقد كان (هاشم بن عبد مناف) ممن يتـــاجر معه ، وبه توفي كما تذكر الأخبار .

وقد كان الذهب في رأس السلع التي حملها تجار العرب إلى الآشوريين وحكومات العراق وبلاد الشأم، وفي التوراة ذكر للذهب الذي كان يجلبه العرب إلى العبرانيين، وقد أشرت إلى ما ذكره الكتبة اليونان عن الذهب عند العـرب ، ولعلهم كانوا يحملون الفضة اليهم كذلك . فقد كانت للفضة مناجم في جزيرة العرب. وقد ورد في أخبار أهل الأخبار ان (أبا سفيان) كان قد حمل فضة كثيرة معه لبيعها في أسواق بلاد الشأم ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد ؛ فلا يستبعد تصدير العرب للفضة لبيعها في تلك الأسواق في ذلك العهد .

أما منتوجات الحديد أو مصنوعات معادن أخرى ؛ فلا نجد لها ذكراً في قائمة السلع التي كان يحملها التجار العرب إلى الخارج ، بل يظهـر ان أهـــل جزيرة العرب ، كانوا هم الذين يستوردون مصنوعات المعادن من الخارج إلى جزيرتهم ،

---

١ REP. EPIGR. 3022, J. Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud-Arabes, I, (1956), p. 211.

٢ Die Araber, I, S. 74. f.

فنجد في الأخبار انهم كانوا يفتخرون بالسيوف الهندوانية ، أي المصنوعة بالهند ، أو المعمولة من حديد هندي ، أو المعمولة على طراز سيوف الهنـــد . وقد عثر المنقبون على مصنوعات معدنية ، تبين لديهم انها من مصنوعات الرومان والروم ، مما يدل على انها قد استوردت من الخارج ، أو ان العمال والمشتغلين في الصناعات المعدنية ، كانوا قد رأوا تلك النماذج فعملوا على محاكاتها وصنع أمثالها . ونظراً لتأخر الصناعة عند الجاهليين ، وإلى نظرتهم الازدرائية اليهـا واحتقارهم لمن كان يشتغل بها ؛ فلا يعقل ان تجد مصنوعاتهم المعدنية مكانة لها بين المنتوجات المماثلة لها في الأسواق الخارجية . لهذا اقتصرت صادرات جزيرة العرب إلى الخارج على المواد الخام ، المتيسرة في بلاد العرب ، أو المستوردة من افريقية أو من الهنـــد ومن وراء بلاد الهند ، وأهمها العطور والطيب والجلود .

وكان (الطيب) ، من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون . تاجروا بتصديره الى خارج العربية الجنوبية الى بلاد الشأم ومصر والعراق وتاجروا بـه في الداخل أي في العربية الجنوبية ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقـــد عرف (الطيب) بـ (طب) (طيب) في لغـــة المسند[1] . ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وافريقية ، ويصدر الى مصر وأسواق بلاد الشأم والعراق .

والبخور من المواد الثمينـــة ذات السعر العالي بالنسبة لتجـارة ذلك الوقت . والبخور ما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة[2] . وقد كانوا يحرقون البخـــور في المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، كما كانوا يبخرون الضيوف ، ويطيبون ثيابهم به . ومنه (القسط) . وهو عود هندي يتبخر به ، يجاء به من الهند ، يجعل في البخور والدواء . ويوجد قسط عربـي . وورد (قسط اظفار) ، قيل هو ضرب من الطيب ، وقيل من العود[3] . وعندي أنه (قسط ظفار) ، نسبة الى (ظفار) قرب مرباط بالعربية الجنوبية ، وتعرف بـ (ظفار الساحل)، نسب اليها العود الذي يتبخر به لأنه يجلب اليها من الهنـد ، ومنها الى اليمن ، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وإنما تجلب من الهند[4] . وقـد أشير

---

١ Müller, Biblische Studien, III, S. 85.

٢ تاج العروس (٣/٣٢) ، (بخر) .

٣ تاج العروس (٥/٢٠٥) ، (قسط) .

٤ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .

الى (العود) في الحديث . ورد : عليكم بالعود الهندي . وقيل هو القسط البحري[1].

و (المسك) من أنواع الطيب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم[2] ، ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع بأثمان غالية . وكانت العرب تسميه (المشموم) . ويذكر علماء اللغة أن اللفظة معربة ،عربت من أصل فارسي هو (مشك)[3] . ورد في الحديث أطيب الطيب المسك . واستعملوه في الطب ، عالجوا به جملة أمراض[4] .

والعنبر من المواد التي تذكر بعد المسك في العربية ، وللأخباريين آراء في أصل العنبر ، وأجوده ما يجلب من شحر عمان[5] .

و (المرّ) ، وهو (امرر) في المسند ، من المـواد الثمينة الغالية في قائمة المنتجات العربية التي تباع داخل البلاد العربية وخارجها ، وقد أقبـل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله في الأغراض الدينية ، فاستعمل في المعابد وفي التحنيط ، واستعمل في جملة الأجزاء التي تدخل في الدهن المقدس[6] . وذكر علماء اللغة ان (المـر) كالصبر ، دواء سمي به لمرارته . وقد عالجوا به جملة أمراض[7] .

و (الصبر) عصارة شجر مرّ ، وأجوده (السقطرى) ، ويعرف أيضاً بالصبارة[8] .

وأما (القرفة) ، فإنها من المواد الثمينة كذلك ، وتنبت في جزيرة (سيلان) بصورة خاصة . وتقشر ويستعمل قشرها ، أو يستعمل دهنها الحاصل من ثمرها في بعض الأحيان[9] . ويرى علماء اللغة ان (القرفة) ضرب من (الدار الصيني)، وهو أنواع ، منه (الدار صيني) الحقيقي ، ومنه المعروف بـ (قرفة القرنفل)[10] .

---

١ تاج العروس (٢/٤٣٧) ، (عود) .
٢ سورة المطففين ، الآية ٢٦ .
٣ تاج العروس (٧/١٧٦) ، (مسك) .
٤ تاج العروس (٧/١٧٦ وما بعدها) ، (مسك) .
٥ تاج العروس (٣/١٢٦) ، (العنبر) ، الاشارة الى محاسن التجارة . (ص ١٩ وما بعدهـا) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٣٢٦) ، Hastings, p. 639. -
٧ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .
٨ تاج العروس (٣/٣٢٥) ، (صبر) .
٩ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٢) ، Hastings, p. 786.
١٠ تاج العروس (٦/٢١٩) ، (قرف) .

و (القرنفل) من المواد المستوردة من الهند وما وراءها . وقد استعملوه طيباً، كما عالجوا به ، وطيبوا به الأكل . وقد أشير اليه في شعر لأمرىء القيس،حيث أشار الى رائحته الطيبة ، وأشير اليه في شعر لعمرو بن كلثوم[1] .

وقد ذكر (الكافور) في القرآن الكريم : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً »[2] . وفي ذلك دلالة على معرفة العرب به ووقوف قريش عليه واستعمالها له . وذكر أن الكافور ، طيب ، أو أخلاط من الطيب تركب من كافور الطلع ، وقيل يكون من شجر بجبال بحر الهند والصين[3] .

وأما (قصب (الذريرة) ، فهو (قليمتن) ، أي (القليمة) في المسند، وهو (قصب الطيب)[4] . و (الذرور) عطر يجاء به من الهند ، كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع من أخلاط. وبه فسر حديث عائشة : طيبت رسول الله لاحرامه بذريرة[5] .

و (السليخة) نوع من الـ Cassia ، أي قشرة تؤخذ من شجرة القرفة ، أو من أشجارها[6] . وذكر علماء اللغة أن السليخة عطر ، وكأنه قشر منسلخ ، ودهن ثمر البان قبل أن يربب بأفاويه الطيب ، فإذا ربب بالمسك والطيب ثم اعتصر ، فهو منشوش . أي اختلط الدهن بروائح الطيب[7] .

و (الكندر) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به[8] . و (اللبان) ، مشهور في العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وافريقية ، وهو ضرب من الصمغ ، وذكر انه الكندر . وانه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجيرة ،

---

١ قال عمرو بن كلثوم :
كأن المسك نكهته بفيها ... وريح قرنفل والياسمينا
تاج العروس (٨/٧٩) ، (القرنفل) .
٢ سورة الدهر ، الآية ٥ .
٣ تاج العروس (٣/٥٢٧) ، (كفر) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢١٦) ، Hastings, p. 786.
٥ تاج العروس (٣/٢٢٣) ، (ذر) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٢) ، Hastings, p. 119.
٧ تاج العروس (٢/٢٦٢) ، (سلخ) .
٨ تاج العروس (٣/٥٢٩) ، (الكندر) .

وتجفيف العصير . وقد استخدم في المعابد . وأشير في سفري (أشعياء)[1] ، و (أرمياء)[2] ، إلى ان العبرانيين كانوا يستوردونه من (شبا) ، أي من أرض (سبأ) ، وأشهره من شحر عمان . وأحسنه ما يجمع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه[3] .

ولفظة (الكندر) من أصل أعجمي هو Cunduru ، وهو من الألفاظ (السنسكريتية) . فيظهر ان الكلمة دخلت العربية من الهند[4] .

وقد كانت في المعابد مخازن تجمع فيها أصناف الطيب والمر والبخور ، وذلك للتصدير والبيع . وقد كانت تقوم بمهمة وسيط في البيع والشراء ، تبيع ما تخزنه وتحصل بذلك على عمولة تستفيد منها وتدر عليها أرباحاً طائلة جداً ، تثري منها. وهكذا نجد المعابد وهي تكاد تحتكر تلك المواد وتنفرد ببيعها إلى التجار[5] .

ويقسم الطيب إلى ذكور الطيب وإلى إناثه . وذكور الطيب ما يصلح للرجال دون النساء نحو المسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذريرة . وعرف هذا النوع بـ (ذكارة الطيب) . والمؤنث طيب النساء ، كالخلوق والزعفران[6] . وورد ان (الغالية) ، طيب عرف في زمن (معاوية) ، وذلك ان (عبدالله ابن جعفر) دخل عليه ورائحة الطيب تفوح منه ، فقال له ما طيبك يا عبدالله ؟ فقال : مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان . فقال معاوية : غالية أي ذات ثمن غال . وقيل أول من سمّاها بذلك (سليمان بن عبد الملك) ، وانما سميت لأنها أخلاط تغلي على النار مع بعضها[7] . والخلوق من طيب النساء،يتخذ من الزعفران وغيره ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة . وقد نهي عنه ، لأنه من طيب النساء[8].

---

١ أشعياء ، الاصحاح ٦٠ ، الآية ٦ .
٢ أرمياء ، الاصحاح ٦ ، الآية ٢ .
٣ تاج العروس (٩/٣٢٩) ، (لبن) ، الاشارة الى محاسن التجارة (ص ٢٢) .
٤ W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, p. 633.
٥ Rhodokanakis, Stud. Lexi., I, S. 6.
٦ اللسان (٤/٣١٠) ، (ذكر) .
٧ تاج العروس (١٠/٢٧٠) ، (غلى) .
٨ تاج العروس (٦/٣٣٧) ، (خلق) .

قوافل سبأ :

وقد أشير في التوراة الى قوافل سبأ ، وهي قوافل كانت تسير من العربيـــة الجنوبية مخترقة العربية الغربية الى فلسطين ، فتبيع ما تحمله من سلع هناك . وقـد كان السبئيون يسيطرون على العربية الغربية ، حـــتى بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين . ولم تشر التوراة الى وجود قوافل بحرية وسفن للسبئيين في البحر الأحمر ، تتاجر مع فلسطـــين ومصر ، ولم نعثر على كتابات بالمسند تشير اليها ، لذلك ، فليس في استطاعتنا التحدث عن التجارة البحرية للسبئيين مع بلاد الشأم .

سارت حكومة سبأ على سياسة التوسع التجاري ، وهذا التوسع يقتضي السيطرة على الطرق ، فبذلت جهدها لبسط سلطانها على الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها . وبعد استيلائها على بقية الحكومـــات العربية الجنوبية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية الى أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربيـــة الجنوبية ، والى الموانىء والمرافىء التي تتاجر مع إفريقية والهند وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذهـــا وحكمها ، وحسنتها وشقت طرقاً جديدة لأغراض حربية واقتصادية ، وبلطت بعض مواضع منها لتقاوم السيول والأمطار ، وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتى تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعـات على هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها . ولا تزال آثار تلك الطرق باقية ، وقـــد كتب عنها السياح .

واتجهت نحو السيطرة على الطرق البرية المؤدية الى بلاد الشأم . ولهـذه الطرق أهمية كبيرة بالنسبة الى اليمن والعربية الجنوبية . وهي طرق موازية للطريق البحرية الممتدة في البحر الأحمر ، ولها شأن خطير في التجارة العالمية . وقد أسست مواضع حراسة ، لحراسة القوافل من قطاع الطرق ومن تحرش القبائل بهـا ، ولعل أهل يثرب الذين يرجعون نسبهم الى اليمن ، هم من الرجـال الذين غرسهم السبئيون في هذا المكان لحماية قوافلهم التي تذهب الى بلاد الشأم .

ووجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانىء الخليج العربي كذلك ، فاستخدموا الطريق الممتدة من نجران الى (السليل) ومن هناك الى الخليج والعراق[1] .

---

١ Rhodokanakis, Altsab. Texte., S. 9, W. H. Irvine Shakespear, in the Geogr. Journal, LIX., No. 5, (1922), p. 321.

وتوجد آثار طرق جاهلية مبلطة تبليطاً حسناً وأخرى ممهدة تمهيداً فنياً . وقد أنشيء بعضها في أرض جبلية وفي أرضين وعرة ، وذلك باستعمال الآلات بمهارة فائقة في قطع الصخور لانشاء هذه الممرات . وقد زفّت بعض هذه الطرق وغطي بطبقة من الاسفلت ، ووضعت عليها صُوى ترشد المارة ، ولما كانت الطرق الطويلة المبلطة تبليطاً فنياً تحتاج إلى نفقات طائلة وإلى أيد عاملة كثيرة وإلى حكومة كبيرة غنية ، لم يكن من الممكن يومئذ فتح طرق طويلة ممهدة تخترق جزيرة العرب ، على شكل الطرق التي أنشأها الرومان في انبراطوريتهم ، لسير القوات العسكرية عليها والتجارات فاقتصر على إقامة الطرق الضرورية القصيرة التي توصل المدن والقرى بالمواضع المهمة [1] .

وقد كان اعتماد التجار على الحيوانات ولا سيما الجمل في نقل تجارتهم . أما العربات فلم تكن مستخدمة في أغراض تجارية في جزيرة العرب . ولم ترد إشارات اليها في نصوص المسند ، ولا في النصوص الجاهلية الأخرى ، ولا في أخبار أهل الأخبار . وقد ظل اعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الإسلامية الى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، ففيه أخذ في تمهيد الطرق لسير وسائل النقل الحديثة عليها، فأخذت تنافس تلك الوسائل القديمة ، وستقضي عليها في المستقبل بالبداهة .

والتجارة هي التي نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى العربية الجنوبية ، وأدخلت الكتابة الثمودية والكتابة النبطية إلى اليمن . وأصحاب الكتابتين من الشعوب المقيمة في العربية الشمالية كما هو معروف. فكتاباتهم لم تأت إلى هنا قافزة متخطية المسافة، بل جاءت مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للاتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التي عثر عليها بعض العلماء في أماكن متعددة من خرائب اليمن ، وقد يعثر على عدد منها وعلى كتابات أخرى ، قد يكون من بينها كتابات بلغات أعجمية في المستقبل بعد قيام بعثات الحفر بالتنقيب هناك .

---

١ Sabaeica, I, p. 78.

الفصل التاسع والتسعون

ركوب البحر

والبحر في رأي علماء العربية الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، وقد غلب على الملح فقط ، حتى قلَّ في العذب . وهو خلاف البر[1] . وأطلق أهل العربية الجنوبية على البحر اللفظة نفسها التي نطلقها عليه ، فيقولون (بحرم) أي بحر . وقد ذكر البحر في معاهدة التآخي والأخوة (تاخين) التي عقدت في القرن الرابع للميلاد بين ملك الحبشة (جدرت) والملك (يدع اب غيلان) ملك حضرموت، لمقاومة ملك سبأ وذي ريدان[2] . وذكر في النص المعروف بنص (أبنة) ،حيث ورد : « وكل الت ذ بحرم ويبسم ومشرقم ومعربم » : ومعناه الحرفي : «وكل آلهة البحر واليابسة والمشرق والمغرب » . وقد ذهب (رودوكناكس) الى أن لفظة البحر تعني الجنوب ، وأن لفظة (يبسم) (يابس) (يَبْس) (يابسة) تعني الشمال ، وأن معنى الجملة المذكورة: «وكل آلهة الجنوب والشمال والمغرب»[3]. وقد وردت اللفظة بمعنى (بحر) في نص « Glaser 830 » ، حيث جاء : «ببحرم ويبسم وكل تشعث وزبد »[4] ، أي « ببحر ويابسة وكل العطايا والهدايا » .

---

١ تاج العروس (٣/٢٧) ، (بحر) .

٢ السطر الخامس عشر والسادس عشر من النص : Glaser 850.

٣ Rhodokanakis, Studi. Lexi., II, S. 10, 166.

٤ السطر الخامس عشر من النص ،
Rhodokanakis, II, S. 10, Mordtmann, Himj. Inschri., S. 21.

ووردت لفظة (اليم) في القرآن الكريم[1] ، ويراد بها البحر . وقد ذكر بعض علماء اللغة انها لغة سريانية[2] . وفي اللغة العربية ألفاظ أخرى مرادفة للبحر أيضاً ، منها (القَلَمَّس) ، و (الدأماء) ، و (الكافر) ، و (الحنبل) ، و (الخضم) ، و (العَيْلم) ، وغير ذلك من ألفاظ ترد في كتب اللغة[3] .

ولجزيرة العرب سواحل طويلة تحيط بها من جميع جهاتها الثلاث ، أما حدها الشمالي فهو أرض تتصل بالعراق وبلاد الشأم . وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه ، وعملوا على استغلال ثرواته قدر طاقتهم ، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها من مسافات بعيدة ، وركب جمع منهم السفن ، للاتجار مع السواحل المقابلة لهم . فباعوا في أسواقها واشتروا ، وقد أظهر أهل السواحل العربية الجنوبية والشرقية نشاطاً في ركوب البحر ، لا نجده عند أهل السواحل الغربية ، على ما يتبين من روايات أهل الأخبار .

ولتكوين رأي عن مدى وقوف الجاهليين على البحار وعلى مدى توغلهم فيها، وركوبهم أمواجها للتجارة أو للاستيطان في مواطن جديدة غريبة ، لا بد لنا من الرجوع إلى مراجع لتستحلب منها مادة نكوّن منها علمنا عن هذا الموضوع . والآثار هي أول ما يجب الرجوع اليه لاستخلاص هذه المادة ، ولكنها ويا للأسف شحيحة ، ليس فيها شيء كاف منها . وأما الموارد الأعجمية ، مثل الموارد المدونة باليونانية واللاتينية والسريانية، فلم تتحرش بموضوع العرب والبحار وبتجارتهم في البحر . وأما الموارد الاسلامية ، فهي بخيلة ، ليس فيها ما يفيدنا عن العرب والبحر غير نزر يسير يفيد ، ان أهل الجاهلية ، كانوا يكرهون ركوب البحر ، ويتهيبون منه ، وانهم لم يكونوا يملكون سفناً لعبوره، حتى ان المهاجرين الأولين من المسلمين ، لمّا هربوا من مكة إلى الحبشة ، ركبوا سفناً بدائية حبشية ، أوصلتهم إلى الحبشة ، وان الخليفة (عمر) كان يتهيب ركوب البحر ، وكان يوصي قوّاده بتجنيب جيوشهم مخاطره ، والابتعاد عنه قدر الامكان ، وبضرورة وضع أرض آمنة وراء الجيش ليكون في وسعهم الرجوع اليها عند المهالك والمآزق[4].

---

١ طه ، الآية ٣٩ ، ٧٨ ، ٩٢ ، القصص ، الآية ٧ ، الاعراف ، الآية ١٣٥ .
٢ المخصص (١٠/١٦٣) ، تاج العروس (٩/١١٤) ، (يمم) ، اللسان (٤/٤٢) ، (بحر) .
٣ راجع الالفاظ المذكورة في كتب اللغة والمعجمات .
٤ ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها) .

وانه لمّا كتب إلى (عمرو بن العاص) ، يسأله عن البحر ، فقال : خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود . كتب اليه (عمر) أن لا يركبه أحد طول حياته ، فلـما كان بعد (عمر) لم يزل يركب حتى كان زمن (عمر بن عبد العزيز) ، فاتبع فيه رأي (عمر) . وكان منع عمر شفقة على المسلمين[1] .

وقد عرف العربـي عند الأعاجم ببغضه للبحر وبخوفه منه وبابتعاده عنه . ورد في حكم (أحيقار) : « لا تُرِ العربـي البحر ، ولا تُرِ الصيدوني (الصيداني) الصحراء »[2] . وذلك لاشتهار العربـي عندهم بسكنه في البوادي وبابتعاده عن البحر ولاشتهار أهل (صيدا) بركوبه وبقهر أمواجه .

وإذا كنا قد فشلنا في الحصول على صورة مفصلة واضحة عن العرب والبحر من الموارد التي أشرت اليها ، وهي مادة المؤرخ في حصوله على مادته التأريخية ، فليس لنا من سبيل لتكوين صورة ولو باهتة عن الموضوع ، سوى الرجوع الى اللغة نستلهم من ألفاظها المتعلقة بالبحر وبوسائل ركوبه ، ما فات وروده في تلك المصادر . فاللغة كما نعلم مظهر من مظاهر الحياة العقلية والعملية لكل أمة ، وهي لم تخلق دفعة واحدة ، ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة ، وإنما خلقت بالتدريج وعلى قدر الحاجة ، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلق المتكلمون بها لها ألفاظاً جديدة وإذا اندثرت أشياء ، فقد تندثر ألفاظها . واللغة مثل الناطقين بها في حياة وموت مستمرين . وإذا حصرنا الألفاظ التي أطلقها الجاهليون على البحر وعـلى وسائل ركوبه وعلى ما فيه ، نستطيع اذن أن نعرف ماذا كانوا يعرفونه عنه وماذا كانوا يجهلون من أمره .

فلنأخذ الألفاظ المتعلقة بالبحر اذن سنداً لنا ، من لغتنا العربية نستنبط منهـا علم الجاهليين به ، مع العلم بأن هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لا يمكن أن تؤدي المهمة على أحسن وجه ، لأنها لغة أهل برّ ، وليس لأهل البر علم أهل الساحل به . والأحرى بنا الاستعانة بلغات أهل السواحل في مثل هذه الدراسة ، لكننا لا نملك نصوصاً جاهلية مدوّنة بها ، حتى نستنبط منها ما نريـد ، وليس في لهجات المسند عن البحر سوى نزر يسير ، ولكنا ما دمنا لا نملك وسيلة للإحاطة

---

١ ارشاد الساري (١٥/٤) .

٢ A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, p. 326.

بعلم الجاهليين بالبحر سوى دراسة هذه اللغة ، فما علينا إلا أن نتتبع ما جاء فيها عنه ، وفي هذا الذي سنقف عليه تصوير لرأي المتكلمين بها بالبحر،وهو تصوير يمثل رأي أهل البرّ عنه .

يقال لشاطىء البحر (الساحل) في عربية القرآن الكريم ، وهو بمعنى ريف البحر وشاطئه[1] . وقد وردت اللفظة في كتاب الله[2] . وقد خصصت هذه اللفظة بالبحر ، أما شط النهر ، فقد عرف بـ (الشاطىء)[3] . ويقال للساحل أيضاً (السيف) و (سيف البحر)[4] . وذكر علماء اللغة ان (العيقة) ساحل البحر وناحيته[5] ، وان (العَدان) ، موضع كل ساحل . وقيل هو الساحل نفسه[6] . وذكر ان « السيف ساحل الوادي ، أو لكل ساحل سيف ، وانما يقال ذلك لسيف عمان »[7] . وورد ان (الطف) و (الطفطاف) ساحل البحر[8] .

و (القاموس) ، بمعنى معظم ماء البحر ، أو البحر ، أو أبعد موضع فيه غوراً ، ووسط البحر[9] ، ولجة البحر ، معظم البحر ، ومنه بحر لجيّ[10] ، و (الشرم) ، لجة البحر ، وقيل موضع ، وقيل هو أبعد قعره ، أو الخليج منه . وقد ذكر (أمية بن أبي الصلت (الشروم) في وصفه جهنم :

فتسمو لا يغيبها ضراء ولا تخبو فتبردها الشروم

والشرم ، مرسى من مراسي خليج السويس ، بينها ستة مراحل[11] .

و (العوطب) ، لجة البحر ، أو المطمئن بين الموجتين ، أو أعمق موضع

---

١ القاموس (٣/٢٩٤) ، (سحل) ، تاج العروس (٧/٣٧١) ، (سحل) .
٢ سورة طه ، الآية ٣٩ .
٣ المخصص (١٠/٢٠) ، القاموس (٣/٣٦٨) ، تاج العروس (١/٨٠) ، (شطأ) .
٤ القاموس (٣/١٥٦) ، المخصص (١٠/٢٠) .
٥ القاموس (٣/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٢٧٥) ، تاج العروس (٧/٣١) ، (عيق) .
٦ القاموس (٤/٢٤٧) ، تاج العروس (٩/٢٧٥) ، (عدن) .
٧ تاج العروس (٦/١٤٩) ، (سيف) .
٨ تاج العروس (٦/١٨٢) ، (طفف) .
٩ القاموس (٢/٢٤٣) ، تاج العروس (٤/٢٢٣) ، (قمس) .
١٠ القاموس (١/٢٠٥) ، تاج العروس (٢/٩٢) ، (لج) .
١١ تاج العروس (٨/٣٥٧) ، (شرم) .

في البحر[1] ، و (الدردور) موضع في البحر يجيش ماؤه ، قلما تسلم منه السفينة ، ويخاف منه الغرق[2] . و (الخليج) ، وهو من البحر ، سمي بذلك لأنه يجذب من معظم البحر[3] ، والخور الخليج من البحر ، وقيل مصب الماء في البحر ، وقيل مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض ، وقيل : عنق من البحر يدخل في الأرض[4] ، والغبُ الضارب من البحر حتى يمعن في البر[5] .

وذكر علماء اللغة أن الجزيرة إنما سُمّيت جزيرة لانقطاعها عن معظم الأرض أو لما جزر عنه[6] . و (البضيع) ، الجزيرة في البحر ، والبحر نفسه[7] . وأما (الدبر) ، فقطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء وينضب عنها[8] .

والسفينة هي واسطة النقل على وجه الماء في الأنهار وفي البحار . وهي من الكلمات المعروفة في عربيتنا ، وقد أشير اليها في شعر عمرو بن كلثوم :

ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وموج البحر نملؤه سفينا[9]

وقد وردت لفظة (سفينة) و (السفينة) في القرآن الكريم[10] ، ويدل ذلك على انها من الألفاظ التي كانت معروفة ومستعملة بهذا المعنى في أيام ظهور الاسلام .

وعبر عن السفينة بلفظة أخرى هي (الفُلك) ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع . وقد وردت في مواضع متعددة من القرآن الكريم[11] . كما يعبر عنها

---

١ القاموس (١/١٠٦) ، تاج العروس (١/٣٨٧) ، (عطب) .
٢ تاج العروس (٣/٢٠٥) ، (در) .
٣ القاموس (١/١٨٦) ، تاج العروس (٢/٣٤) ، (خلج) .
٤ تاج العروس (٣/١٩٢) ، (خار) .
٥ القاموس (١/١٠٩) ، تاج العروس (١/٤٠٣) ، (غب) .
٦ المخصص (١٠/١١) ، القاموس (١/٣٨٩) ، تاج العروس (٣/٩٨) ، (جزر) .
٧ القاموس (٢/٦) ، تاج العروس (٥/٢٧٨) ، (بضع) .
٨ القاموس (٢/٢٦) ، تاج العروس (٣/١٩٨) ، (دبر) .
٩ اللسان (١٣/٢٠٩ وما بعدها) ، (سفن) ، تاج العروس (٩/٢٣٦) ، (سفن) .
١٠ الكهف ، الآية ٧٢ ، ٨٠ ، العنكبوت ، الآية ١٥ .
١١ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥٢٦) ، اللسان (١٠/٤٧٩) .

بـ (مركب) ، والجمع مراكب[1] . ولو ان المركب كلمة عامة تطلق على كل ما يركب عليه ، فالدواب هي مركب أيضاً لمن يركبها ، غير ان (المركب) السفينة على سبيل التغليب والاصطلاح. وقد عبر القرآن الكريم عن السفن والمراكب بلفظة (الجاريات) و (الجوار) ، و(الجارية) كما في هذه الآية : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ، وكما في هذه الآية : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » ، وفي مواضع أخرى[2] . و (الجارية) المركب أيضاً ، صفة غالبة لأنها تجري على الماء[3] .

وقد وردت لفظة (الفُلك) بصورة خاصة تعبيراً عن سفينة نوح الواردة في الطوفان . ويذكر بعض المفسرين أن السفينة ، أي (الفُلك) ، كانت مصنوعة من خشب الساج ، وكانت (ذات ألواح ودُسُرْ) ، أي أن ألواحها قد التصقت بعضها ببعض بـ (دسر) وهي المسامير[4] .

وورد في القرآن الكريم : « والفلك التي تجري في البحر »[5] . وورد في الشعر :

جَوافِلَ في السراب كما استقلت فلوك البحر زال بها الشرير

والفلوك هنا جمع (الفلك) ، وأما الشرير ، فشجر البحر[6] . ويظهر من هنا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر . وهي من السفن الكبيرة . وقد ورد في القرآن أيضاً (في الفلك المشحون) أي السفينة المشحونة المملوءة كما ورد : « حتى إذا كنتم في الفُلك وجرين بهم بريح طيبة » . وفي هذه الآية معنى مهم ، يدل على إحاطة الجاهليين بالبحر وركوبهم فيه ، وتسييرهم لها بفعل الرياح . وقد وردت في القرآن الكريم إشارات الى صنع الفلك والى سيرها مواخر في البحر .

---

١ اللسان (٨/٢٩٢) .
٢ سورة الشورى ، الآية ٣٢ ، والرحمن ، الآية ٢٤ ، والحاقة ، الآية ١١ ، اللسان (٨/٢٩٢) ، شمس العلوم (ح ١ ق ٧ ص ٣١٨) ، القاموس (٤/٣١٢) .
٣ تاج العروس (١٠/٧٢) ، (جرى) .
٤ قصص الانبياء (ص ٣٤) ، تاج العروس (٣/٣١٦) ، (دسر) ، Ency., II, p. 117.
٥ البقرة ، الآية ١٦٤ .
٦ المخصص (١٠/٢٣) ، القاموس (٢/٥٧) .

ويقال للسفينة : (البارجة) أيضاً ، والجمع (البوارج) . وذكر انها السفن الكبار ، وانها سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[1] .

و (القرقور) : ضرب من السفن ، وقيل : هي السفينة العظيمة أو الطويلة . والقرقور من أطول السفن . وجمعه قراقير . وفي الحديث : « فاذا دخل أهل الجنة الجنةَ ركب شهداء البحر في قراقير من درّ »[2] .

و (الخليّة) العظيمة من السفن ، والجمع خلايا . قال طرفة :

كأنّ حدوج المالكية ، غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وقال الأعشى :

يَكُبُّ الخليّة ذات القلاع وقد كاد جؤجؤها ينحطم[3]

وقيل هي التي يتبعها زورق صغير[4] .

وذكر ان من أسماء السفن الكبيرة (الخلج) . وقيل انها دون العدولية . وأما (الصلفة) فسفينة كبيرة ، و (الزنبرية) نوع من أنواع السفن الكبيرة[5] . و (القادس) : السفينة العظيمة ، وقيل صنف من أصناف المراكب ، أو لوح من ألواحها[6] .

وقد ضرب (لبيد بن ربيعة العامري) مثلاً بسفينة (الهندي) في طولها وعرضها وفي إحكام عملها ، عملها صانعها من صفائح مشبوحة ودهنها وسدّ المسافات التي تكون بين صفائح الخشب حتى لا ينفذ منها ماء البحر[7] . مما يدل بالطبع على وقوفه عليها وعلى شهرة تلك السفن في تلك الأيام .

---

١ اللسان (٢/٢١٣) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) ، (برج) ، المخصص (١٠/٢٦) .
٢ اللسان (٥/٩١) .
٣ اللسان (١٤/٢٤١) ، تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) .
٤ تاج العروس (١٠/١١٩) ، (خلا) ، القاموس (٤/٣٢٥) .
٥ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) .
٦ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) ، (قدس) .
٧ شرح ديوان لبيد (ص ١٤٢) .

وقد أشار بعض الكتبة من اليونان واللاتين الى نوع من السفن دعوه « Madarata » ؛ ذكروا أن ميناء(عمانه) « Omana » كان قد اشتهر ببنائه . وقد صنعت هذه السفن من الألواح المشدودة بالليف . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه اللفظة من أصل عربي ، هو (مدرّعات) ، ويراد بها السفن المشدودة بدروع النخل . ورأى آخرون أنها من أصل « Mabarata » جمع(معبر)من أسماء السفن في لغة بني(إرم)[1].

وذكر علماء اللغة أن (المِعْبَر) ما عبر به النهر من فلك أو قنطرة أو غيره، والمعبرة سفينة يعبر بها النهر[2] . فالمعابر إذن من الوسائل المستعملة في عبور النهر على ما يظهر من شرح أولئك العلماء .

وقريب من هذا الوصف وصف نوع من السفن عرف بـ (العمائم) . ذكر علماء العربية أنه : عيدان مشدودة تركب في البحر ويعبر عليها[3] . وهو نوع بدائي بالطبع لا يمكن أن يقارن بالسفن التي كانت عند الرومان واليونان . و(الطوف) قرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض ، فتجعل كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها المِيرة والناس ، ويعبر عليها ، وهو الرمث . وربما كان من خشب والجمع أطواف . وذكر بعض العلماء أن الطوف التي يعبر عليها الأنهار الكبار تسوى من القصب والعيدان يشدّ بعضها فوق بعض ، ثم يقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها ، وربما حمل عليها الحمل على قدر قوته وثخانته ، ويسمى : (العامة)[4] .

والرمث خشب يضم بعضه إلى بعض كالطوف ويركب عليه في البحر . وفي الحديث ان رجلاً أتى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنا نركب أرماثاً لنا في البحر ولا ماء معنا ، أفنتوضأ بماء البحر . فقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . قال أبو صخر الهذلي :

---

١ العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، تأليف جورج فضلو حوراني ، وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (ص ٦٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤/٥٣٠) ، (عبر) .

٣ اللسان (١٢/٤٢٥) ، القاموس (٤/١٥٤) ، تاج العروس (٦/١٨٤) ، المخصص (١٠/٧٩) .

٤ تاج العروس (٦/١٨٤) ، (طوف) ، القاموس (٣/١٧٠) .

تمنيت من حبّي عُلَيَّةَ أننـا على رمثٍ في الشرم ليس لنا وفر[1]

وذكر علماء العربية اسم نوع من السفن قالوا له : (البوصي) . وقالوا انه فارسي معرب ، وان الكلمة وردت في شعرٍ للأعشى[2] . وذُكر ان (البوصي) الملاح ، وقيل الزورق ، وان الكلمة معربة (بوزي)[3] .

وذهب بعض علماء اللغة إلى ان (العدولية) الواردة في قول طرفة بن العبد :

عدوليّة أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

سفناً منسوبة إلى قرية بالبحرين يقـال لها (عدولي) ، أو إلى قوم كانوا ينزلون هجر ، أو إلى عدول ، رجل كان يتخذ السفن[4] . ولا يستبعد ان يكون مراد الشاعر من السفن (العدولية) ، السفن القادمة من ميناء (أدولس) (عدولي) ميناء تجاري على ساحل الحبشة اشتهر بالتجارة قبل الاسلام .

ويظهر من شعر طرفة المذكور ، ان رجلاً اسمه (ابن يامين) كان تاجراً يملك سفناً ، وأن سفنه كانت تمخر العباب . وذكر أيضاً أنه كان بحاراً ، وورد (ابن نبتل) بدلاً من (ابن يامين)[5] .

وذكر علماء اللغة أن من أسمـاء المراكب المائية الصغيرة : الزورق والقارب والركوة . والزورق ، السفينة الصغيرة ، وقيل هو القارب الصغير[6] . و(الركوة) زورق صغير[7] .

وقد عرفت السفن المستعملة في القتال بأسماء خاصة ، منها البارجـة ، وهي سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال[8] .

---

١ تاج العروس (١/٦٢٥) ، (رمث) ، القاموس (١/١٦٢) ، (رمث) .
٢ مثـل الفراتي ، اذا مـا طمـا يقـذف بالبوصـي والماهـر
تاج العروس (٤/٣٧٦) ، القاموس (٢/٢٩٦) ، المخصص (١٠/٢٣) ، بلوغ الارب (٢/٣٦٧) .
٣ تاج العروس (٤/٣٧٦) ، اللسان (٧/٩) .
٤ القاموس (٤/١٤) ، تاج العروس (٨/١١) ، (عدل) ، بلوغ الارب (٣/٣٦٥) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٦٥ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٦/٣٦٩) ، (زرق) .
٧ تاج العروس (١٠/١٥٥) ، (ركا) .
٨ المخصص (١٠/٢٦) ، القاموس (١/١٧٨) ، تاج العروس (٢/٧) .

والشراع هو (ماكنة) السفينة وقوتها المحركة الدافعة لها . ويقال له (القِلع) أيضاً[1] ، وجلّ كذلك[2] . وقد ذكر علماء اللغة ، أن الشراع كالملاءة الواسعة فوق خشبة من ثوب أو حصير مربوع وتر على أربع قوى ، تصفقه الريح فيمضي بالسفينة[3] . ويظهر من هذا الوصف أن أشرعة أهل الجاهلية كانت بسيطة ، ولم تكن متداخلة كأشرعة الروم . والشراع البسيط على النحو المذكور ، يكون ضعيفاً فاتر الهمة لا يتمكن من دفع السفن الكبيرة ، بل وقد لا يتمكن حتى من دفع السفن الصغيرة بسرعة ، بسبب صغر حجمه ، ثم إنه لا يتمكن من الاستفادة من قوة الريح ، ومن استخدام هذه القوة في توجيه السفينة بسرعة نحو هدفها، والسير بها في عرض البحر ، بينما يتمكن الشِراع المكون من عدة أقلعة ، من الاستفادة من الريح ، ومن دفع السفينة دفعاً سريعاً ، ومن حملها الى عرض البحر، فيقلص من المسافات ويبعدها عن أخطار لصوص البحر ، ولذلك لم تتمكن سفن أهل الجاهلية من مواجهة سفن الروم ومن تحديها ، حين دخلت سفنهم البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط .

والدقل : سهم السفينة ، وهو خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ، يمد عليها الشراع[4] . والجؤجؤ : صدر السفينة[5] ، و (المرنحة) : صدر السفينة كذلك[6] ، وعرف (الدقل) بـ (الدوقل) كذلك ، وتسميه البحرية (الصاري)[7] . و (الصاري) الملاّح أيضاً ، لحفظه السفينة[8] . و (القب) ، رأس الدقل ، و (القرية) ، خشبة مربعة على رأس القب[9] .

وأما الذي يعدل اتجاه السفن ويغير من اتجاهها ، فهو (السُكّان) ، وهو (الكوثل) أيضاً . وذكر أيضاً ان (السُكّان) ما تُسكّن به السفينة تمنع به

---

١ بالكسر ، اللسان (٨/٢٩٢) ، القاموس (٣/٧٤) .
٢ اللسان (١١/١٢١) ، (والجل بالفتح : الشراع) ، تاج العروس (٧/٢٦٠) ، (جلل) .
٣ تاج العروس (٥/٣٩٥) ، (شرع) .
٤ تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٥ تاج العروس (١/٤٩) ، (جأجأ) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .
٧ اللسان (١١/٢٤٦) ، تاج العروس (٧/٣٢٣) ، (دقل) .
٨ تاج العروس (١٠/٢٠٩) ، (صرى) .
٩ اللسان (٢/٤٥٥) ، تاج العروس (٢/١٤٧) ، (رنح) .

من الحركة والاضطراب[1] . وذكر بعض علماء العربية ان (الكوثل) مؤخر السفينة، وفيه يكون الملاحون ومتاعهم[2] . والأغلب انه (السُكّان) ، ويعبر عنه بـ (الخيزرانة) كذلك[3] . وبلفظة أخرى هي (الدويطرة) . وقد عرفت بأنها كوثل السفينة[4] .

ويعرف سكان السفينة بـ (الخيزرانة) وبـ (الخيزران) . قال النابغة يصف الفرات وقت مدّه :

يظل من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد[5]

ويستعمل الملاحون (المجاديف) (المجاذيف) في تجديف السفينة[6] . و (المجداف) خشبة رأسها لوح عريض تدفع بها[7] . ويقال له (المقذف) و (المقذاف) أيضاً[8] . ولم يتطرق علماء اللغة ولا أهل الأخبار إلى عدد (مجاديف) السفينة الواحدة ، أي إلى عدد رجالها الذين كانوا يجدفون بالمجاديف . فالسفن الكبيرة الضخمة تحتاج إلى عدد من المجدفين ، قد يبلغون العشرات . وقد كانت سفن الروم ، ذات طابقين بالنسبة للمجدفين ، فيجلس عدد منهم في الطابق الأسفل ، ويجلس فوقهم عدد آخر من المجدفين ، لتسير السفينة بسرعة ، وقد استخدموا هذه الطريقة في سفنهم الحربية بصورة خاصة ، لأنها سفن ، يجب ان تعتمد على السرعة وعلى خفة الحركة لتتمكن من التغلب على سفن الأعداء .

وأما (المُردي) ، فخشبة يدفع بها الملاّح السفينة . وذلك كي يحركها عند

---

١ اللسان (١٣/٢١١) ، قال طرفة :
كسكان بوصي بدجلة مصعد .
٢ اللسان (١١/٥٨٣ وما بعدها) .
٣ قال الاعشى :
من الخوف كوثلها يلتزم
اللسان (١١/٥٨٤) .
٤ اللسان (١١/٥٨٤) ، (٢/٤٥٥) .
٥ اللسان (٤/٢٣٨) .
٦ بالدال والذال جميعا ، لغتان فصيحتان .
٧ اللسان (٩/٢٣) .
٨ اللسان (٩/٢٧٧) ، القاموس (٣/١٢٢) ، تاج العروس (٦/٥٤) ، (جدف) ، (٦/٢١٨) ، (قذف) .

الشواطىء والسواحل حيث تكون المياه ضحلة[1] . والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة أيضاً[2] .

ويقال للذي يشتغل في السفينة ويعمل على تسييرها (الملاّح) ، ويقال لـه (صار) و (الصاري) أيضاً[3] . وحرفته (الملاحة) . ويقال للملاّح : (السفّان) كذلك ، وهو الـذي يشتغل في السفن ، ويعبر عنه بـ (النوتي)[4] . والجمع (نوتية) و (نَوّاتين) . « وفي حديث علي ، كرم الله وجهه : كأنـه قلع داريّ عنجه نوتية » . وورد أن (النوتي) البحار ، وهو من كلام أهل الشأم[5] ، واللفظة من أصل يوناني[6] .

و (الربّان) ، أو (ربان السفينـة) ، هو قائدها الذي يجريها . ويرى علماء اللغة أنها دخيلة معربة[7] .

ويقال للموضع الذي ترفأ اليه السفن (المرفأ) . من أصل (رفـأ) بمعنى أدنى . وورد في حديث (تميم الداري) : « أنهم ركبـوا البحر ثم أرفأوا الى جزيرة »[8] . ويعبر عن (المرفأ) بلفظة (الكلاّء) و (المُكلا) أيضاً . لأنه يكلأ السفن من الريح ، وذلك بحبس السفن فيه لحمايتها من الريح ولإنزال مـا فيها ، وأخذ ما فيه من تجـارة وناس[9] . ويقال للمرفـأ (الميناء) كذلك ، وعرفوه بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفن[10] . كما يقال له : (فرضة)

---

١ اللسان (٣/٤٠٢) ، القاموس (٤/٣٣٤) ، تاج العروس (١٠/١٤٨) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٦٦) .
٣ اللسان (١١/١٢١) ، (١٤/٤٦٠) .
٤ اللسان (٢/٦٠٠ وما بعدها) .
٥ اللسان (٢/١٠١) .
٦ غرائب اللغة (٢٧١) .
٧ اللسان (١٣/١٧٥) .
٨ اللسان (١/٨٧) ، « وفي حديث أبي هريرة في القيامة ، فتكون الارض كالسفينة المرفأة في البحر تضربها الامواج » ، تاج العروس (١/٧١) ، (رفأ) .
٩ اللسان (١/١٤٦) ، تاج العروس (١/١١٢) ، (كلأ) ، « سوق الكلأ » بالبصرة ، موضع يكلئون سفنهم به ، أي يحبسونها .
١٠ اللسان (١٣/٤٢٦) ، (ميني) ، كل مرسى السفن ، تاج العروس (٩/٣٥٥) ، (مـان) .

و (فرضة البحر)[1] و (المَرْساة) ، البقعة التي ترسو فيها السفينة[2] .

ومن مصطلحات السفن في العربية ، الشحن ، فيقال شُحنت السفينة شحناً بمعنى ملئت ، ومخرت السفينة ، أي جرت[3] . وحبت السفينة ، أي جرت[4] ، وجنحت السفينة جنوحاً إذا انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض ، وجمحت جموحاً إذا تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، ويقال ماهت السفينة إذا دخل فيها الماء ، ورست وأرست ، إذا بلغ أسفلها القعر فثبتت، وإذا أرسيت وسخرت أطاعت وطاب لها السير ، وحدرت السفينة أحدرها، وتقاذفت في البحر جرت ، وشجّت البحر قطعته[5] . وهناك مصطلحات عديدة أخرى يشير ورودها في اللغة إلى معرفة في البحر وفي استخدام السفن في البحار .

وعند دنوّ السفينة من الأماكن التي تريدها ، ترسو في مرفأ لتفرغ حمولتها أو لتحميلها أو لتزود بما تحتاج اليه من زاد وطعام ، فتلقي بمراسيها في المرفأ تثبيتاً لها فلا تتحرك ولا تأخذها الأمواج ولا الرياح . ويسمي الملاحون المِرساة (الأنجر) ، ويكون من الخشب الصلب الثقيل أو حديداً أو حجراً كبيراً ، وقد يكون على شكل كرة ، وقد يكون على شكل مربع أو مستطيل ، أو على شكل (خطّاف) ، أو حديد محجن[6] . فإذا أرادت السفينة الرسو أنزل إلى الماء ليستقر على القاع فتثبت السفينة[7] . وقد وصف (الأنجر) ، انه خشبات يخالف بينها وبين رؤوسها وتشدّ أوساطها في موضع واحد ، ثم يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة ، ورؤوس الخشب ناتئة تشد بها الحبال وترسل في الماء إذا رست السفينة ، تعريب لنكر من أصل فارسي[8] .

وقد ذكر علماء اللغة أن (السبابجة) ، هم قوم من السند يستأجرون ليقاتلوا ، وكانوا قوماً جلاوزة وحرّاس السجن في البصرة أيام الإسلام . وكان رئيس السفينة

---

١ اللسان (٢٠٦/٧) .
٢ القاموس (٣٣٤/٤) ، تاج العروس (١٤٩/١٠) ، (رسا) .
٣ القاموس (١٣١/٢) ، (نحر) .
٤ تاج العروس (٨١/١٠) ، (حبو) .
٥ المخصص (٢٣/١٠ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٥٥٧/٣) ، (نجر) .
٧ تاج العروس (١٤٩/١٠) ، (رسا) .
٨ تاج العروس (٥٥٧/٣) ، (نجر) .

البحرية يستأجرهم ليكونوا معه يبذرقونها ، أي يخفرونها ويقاتلون من يتصدى لها بسوء[1] . وقد كانت بالأبلة التي عاشت قبل البصرة جاليات جاءت اليها من الهند، فقد كان الاتجار بين الهند وجنوبي العراق وسواحل جزيرة العرب اتجاراً قديماً ، وقد أقامت جاليات أخرى منها في مواضع من هذه السواحل ، وقد أشرت الى عثور العلماء على هياكل بشرية بأرض عمان ، تمثل (الدرافيديين) ، أي سكان الهند القدامى ، والى وجود أثر لملامح هندية في سكان ساحل عمان تظهر عليهم حتى اليوم .

وصناعة السفن الكبيرة تحتاج الى أخشاب صلدة قوية والى مسامير من حديد تستعمل في ربط الألواح والأخشاب بعضها ببعض ، والى أيدي فنية عاملة ، وعلم بهندسة بناء السفن . ولم تتيسر هذه الأشياء في جزيرة العرب . فالخشب الصالح لبناء السفن غير موجود في أكثر أنحائها ، ولهذا اقتصرت صناعة السفن على السفن الصغيرة في الغالب ، وهي سفن ليس في مقدورها اختراق آفاق البحار الكبيرة والمحيطات ، والتجول بحرية في أية ناحية كانت من نواحي البحر الواسعة. ولم يكن لها إلاّ السير في محاذاة السواحل ، وهو سير يكلفها كثيراً ، فعلى السفن أن تقطع مسافات طويلة معرضة نفسها لمخاطر الاصطدام بالصخور الكامنة في المياه ولهجمات لصوص البحر الجائعين وللجوء الى مراسي كثيرة طلباً للماء العذب والزاد، ولتمضية وقت طويل ، على حين لا تحتاج السفن الكبيرة الى كل ذلك ، فهي قادرة بفضل متانتها وقوة صنعها من اختصار المسافات وتقصير الوقت وحماية نفسها من هجمات لصوص البحر باستخدام الرياح البحرية ، وقطع البحر باستقامة وبحُرية الى أي ميناء يريده الربان .

وكان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج ، أو شراء السفن جاهزة من الأسواق الخارجية ، وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفاً باهظاً ، ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج . وهذا ما سهّل للرومان واليونان والفرس مزاحمة الدول العربية الجنوبية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، ومن إنزال خسائر فادحة في ثروة العرب ، أثرت أثراً كبيراً في الأوضاع السياسية والاقتصادية لجزيرة العرب،

---

١ اللسان (٢/٢٩٤) ، (١٠/١٤) .

كما أثرت عليها من الناحية العسكرية إذ جعلت السواحل مكشوفة مفتوحة من الوجهة الحربية فأنزلت الدول الكبرى في مواضع منها قواتاً لحماية مصالحها التجارية وقوافلها البحرية وذلك قبل الميلاد وبعد الميلاد إلى ظهور الاسلام .

والساج من أثمن الأخشاب وأنفسها في صناعة السفن،فهو خشب مقاوم صلب، وقد استورد من الهند[1] . ويظهر انه هو الخشب الذي ذكر (ثيوفراستوس) « Theophrastus » ،انه كان بجزيرة (تيلوس) « Tylus » ،ويقصد بها البحرين، والخشب الذي كان في ميناء (عمانة) عمان الذي أشار اليه صاحب مؤلف (الطواف حول البحر الأريتري) ، والذي ذكر انه خشب مستورد من ميناء (بريجازا) بالهند[2] .

وقد صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم ، مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي . صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب، ولا سيما على سواحل الخليج ، حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند . وهي صناعة لا تزال حية ، إلا ان الهرم بدأ يظهر عليها ، وأخذت تتقلص ، وأوشكت على توديع الدنيا ، لتراكم الأمراض عليها ، ولعجزها عن مد نفسها بمقومات الحياة الملائمة لعصر السرعة .

وتتكون السفن الكبيرة الجيدة من سقائف ، وهي ألواح السفينة . وكل لوح سقيفة[3] . وقيل إن اللوح من ألواح السفينة ، هو القادس[4] . وأما ما بين كل خشبتين من السفينة ، فيقال له الطائق[5] . وتخرز السفن بالليف ، ويجعل في خللها القار[6] . والجلفاظ الذي يجلفظ السفن ، وهو أن يدخل بين مسامير الألواح ، وخروزها مُشاقة الكتان ، ويمسحه بالزفت والقار[7] . وقد تطلى السفن بالقار ، وتدسر . ويراد بالدسر المسامير لغاية التسمير والتدسير[8] . ويقال للموضع الذي يجتمع

---

١ القاموس (١/١٩٥) ، تاج العروس (٢/٦١) .
٢ حوراني (ص ٢٤٤ وما بعدها) .
٣ القاموس (٣/١٥٢) .
٤ القاموس (٢/٢٣٩) ، تاج العروس (٤/٢١٣) .
٥ القاموس (٣/٢٦٠) ، « طوق » .
٦ المخصص (١٠/٢٥ وما بعدها) ، القاموس (٢/١٢٤) ، تاج العروس (٣/٥١٢) .
٧ القاموس (٢/٣٩٤) ، القاموس (٢/٣٥٣) .
٨ القاموس (٢/٢٩) ، تاج العروس (٣/٢٠٦) .

فيه الماء الراشح جمّة المركب[1] .

ولم ترد في نصوص المسند المصورة صورة سفينة نهتدي بها الى معرفة أشكال السفن عند العرب الجاهليين . كذلك لم يعثر المنقبون حتى الآن على صورة لها في النصوص التي ظُفر بها في أماكن أخرى من جزيرة العرب . ولا يستبعد أن تكون سفن العرب أنواعاً متعددة ، بحسب أغراضها ووفرة الخشب الصالح لبناء السفن، وعلى قدر اختلاط سكان سواحل الجزيرة بغيرهم من أصحاب السفن . ولا أستبعد أن يكون أهل العربية الجنوبية والعربية الشرقية قد تأثروا بصناعة السفن اليونانية والساسانية والهندية والافريقية لاختلاطهم بهم ، ومجيء سفن هؤلاء الى مراسي السواحل العربية ، ولتمكنهم من شراء الخشب الصلد الصالح لبناء السفن من افريقية والهند .

ولم تتمكن سفن ذلك اليوم ، وحتى أعظمها وأكبرها من مناطحة عواصف البحار ومقاومة أمواجها ، فكثرت أمراضها وعللها ، وفي جملتها الخروق التي كانت تصيب مواضع اتصال ألواحها ، فتفكك أوصالها فتهلك، ويتعرض أصحابها إلى خسائر كبيرة . أضف إلى ذلك تعرضها إلى تحرش لصوص البحر بها ، الذين كانوا يترصدون السفن ، فإذا وجدوا فرصة مناسبة ، هاجموها لأخذ ما قد يقع في أيديهم من حمولتها النفيسة . ولهذا كانت أجور نقل التجارة بالسفن عالية ، لتعوض عن خسائر السرقة والغرق ، ثم إن أجواف تلك السفن كانت صغيرة ، لا تتحمل حملاً كثيراً ، فصار أصحابها لا يحمّلونها إلا السلع الغالية التي لا تحتاج الى مكان كبير والتي تتحمل أرباحها دفع الأجور الغالية عن نقلها الى المواضع التي يراد ايصالها اليها .

ولا يتسع هذا المكان لذكر كل الألفاظ والمصطلحات التي لها علاقة بالبحر ، فهناك أسماء لمختلف أنواع السفن ، وأسماء أدوات كثيرة استعملت في السفن ، وأسماء للساحل وللجزر وللنباتات البحرية وغير ذلك وردت في كتب اللغة ، واليها يجب ان يرجع من يريد المزيد من هذه الألفاظ والمصطلحات ، غير ان علينا ان ننتبه الى ان في هذه المصطلحات ، مصطلحات عديدة دخلت العربية في الاسلام .

وتفيدنا هذه الألفاظ والمصطلحات فائدة كبيرة في الوقوف على مدى تأثر البحرية

---

١ القاموس (٤/٩١) .

العربية الجاهلية بالبحرية الأجنبية ، وذلك بدراسة أصول هذه الألفاظ والمصطلحات لمعرفة المكان الذي جاءت منه والشعب الذي موّن البحّارة العرب بها .

ونجد في مصطلحات البحر ألفاظاً يونانية ، وألفاظاً لاتينية ، وألفاظاً فارسية ، وألفاظاً حبشية،ودخول هذه الألفاظ اللهجات العربية دليل على تأثر البحرية العربية ببحرية تلك الأمم واتصالها بها وأخذها منها . وقد أشار علماء اللغة الى أصول بعض هذه الألفاظ ، فذكروا انها أعجمية . ولمّا كان علمهم باللغات الأعجمية غير الفارسية محدوداً ، لم يتمكنوا من تشخيص أصول بعض المصطلحات المعربة عن اليونانية أو اللاتينية أو الحبشية أو الهندية ، فرجعوها الى أصل فارسي في الغالب، وهي ليست من الفارسية في شيء .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية ما يفيد بدخول أهل العربية الغربية البحار ، والأخبار الإسلامية لا تشير الى ذلك أيضاً ، بل الذي يفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر ، وأنهم كانوا يركبون البحر في سفن حبشية توصلهم الى السواحل الافريقية للاتجار هناك . ولما خرج المسلمون الأولون مهاجرين الى الحبشة ، انتهوا الى (الشعيبة) ، فوجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيها الى أرض الحبشة بنصف دينار[1] . و (الشعيبة) ، مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز ، وكان مرسى مكة قبل جدة[2] .

ونجد في خبر عودة المهاجرين من الحبشة ، أنهم حملوا في سفينتين ، حملهم عليهما النجاشي . أي أن السفينتين كانتا من سفن الحبش[3] . ولم يرد في الخبر ، اسم الموضع الذي أبحروا فيه منه الى الحجاز،ولا اسم المرسى الذي رست السفينتان فيه ، واتجه المسلمون منه الى يثرب .

ويظهر أن تلك السفن كانت صغيرة مكشوفة الجوانب ولم تكن تتسع لعدد كبير من المسافرين ، حتى أن حركات المسافرين كانت تؤثر فيها . روي أن (جعفر بن أبي طالب) ، سأل رسول الله كيف نصلي في السفينة إذا ركبنا في البحر ، فقال : صلّ قائماً إلا أن تخاف الغرق ، أو يصلي قائماً إلاّ أن يضر بأهلها . وصلى أنس في السفينة جالساً[4] .

---

١ الطبري (٢/٣٢٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٢١) ، (شعب) .
٣ الروض الانف (٢/٢٥٠ وما بعدها) .
٤ الروض الانف (١/٢١٥) .

ومما يؤسف له أن أهل الأخبار لم يذكروا أسماء المواضع التي كان يتاجر معها العرب على السواحل الافريقية المقابلة ، ولم يذكروا حتى أسماء المرافىء التي نزل بها المهاجرون المسلمون الأولون من مكة عـلى ساحل الحبشة ، ولا اسم الموضع الذي نزل به وفد (قريش) الى الحبشة ، الذي جاء لتحريض الحبش على من هاجر اليهم من المسلمين ، ولم يذكروا كذلك اسم الموضع الذي أبحر منه المسلمون للعودة الى الحجاز ، يوم أرسل الرسول (عمرو بن أميّة الضمري) ليعود بهم الى يثرب ، ولا اسم الموضع الذي نزلوا به من ساحل الحجاز[1] .

١ الروض الانف (٢/ ٢٥٠ وما بعدها) .

الفصل المئة

التجارة البحرية

وليس في كتابات المسند التي وصلت الينا شيء عن التجارة البحرية . ولا يعقل بالطبع ألا يكون لسكان سواحل جزيرة العرب علم بالبحر ، والا تكون لهم سفن مهما كان حجمها ، كانوا يركبونها في اتجارهم مع افريقية ومع بلاد الهند وايران . فقد علمنا أن العرب الجنوبيين كانوا قـد أقاموا دولة (اكسوم) في الحبشة . وقد رأينا أن من المستشرقين من يرى أن أصل كلمة (حبشت) (حبشة) ، من أصل عربي ، وأن (الحبشة) أرض في العربية الجنوبية في الأصل ، منها هاجر الحبش ، سكان تلك الأرض ، وهم من العرب فنزلوا بالأرض التي سميت باسمهم في إفريقية ، وقد رأينا أيضاً أن العرب امتلكوا السواحل الافريقية المقابلـة للعربية الجنوبية أمداً طويلاً ، كما امتلكوا بعضاً منها في الاسلام الى عهد غير بعيـد ، ولا يعقل بالطبع ذهابهم الى تلك السواحل ونزلوهم بها بغير ركوب سفن ، ولا يعقل أن يكونوا قد ذهبوا اليها بسفن أجنبية ، بل لا بد وأن يكونوا قد عبروا الى تلك السواحل بسفن كانت تعود لهم ، ولا بد وأن لهم أسطول تجاري كانوا يمخرون به عباب البحار للاتجار .

وقد رأينا من كتب بعض الكتبة اليونان واللاتين ان الصومال كان يحكمه حكام عرب ، وان التجار العرب كانوا يشاهدون بكثرة في (رهابتا) « Rahapta » على مقربة من (زنجبار) . وان مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ،

كان قد ذكر ان رئيس (معافر) كان يحكمها بموجب حق قديم . وان أهل مدينة « Muza » يحكمونها باسمه، ويبعثون اليها بسفن تجارية يديرها ربابنة ووكلاء عرب ألفوا أهل البلاد ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم، وخبروا الساحل ، واطلعوا على لغتهم[1] .

إن خلوّ كتابات المسند من كل إشارة الى البحر والى السفن والى الاتجار مع الأقطار الواقعة على السواحل ، لأمر يؤسفنا كثيراً، فقد حرمنا الكلامّ على البحرية العربية وعلى علم العرب الجنوبيين بالبحار ، وبات علمنا بالتجارة علماً ضئيلاً محدوداً ، وليس لنا إلا التطلع الى المستقبل ، فهو وحده الكفيل بزيادة علمنا في هذا الموضوع .

وقد كان أكثر ثراء العربية الجنوبية من التجارة ، التجارة البرية والتجارة البحرية ، والاتجار بالمواد الناتجة في جزيرة العرب ذاتها ، والاتجار بالمواد المستوردة من الخارج ولا سيما السواحل الافريقية أو الهند .

وقد كان الاتجار مع افريقية سهلاً يسيراً بالنسبة الى تجار العربية الجنوبية ، ولا سيما تجار اليمن . فإن الشقة بين سواحل افريقية وسواحل اليمن ليست واسعة كبيرة ، ولهذا كان في استطاعة السفن الشراعية ان تقطعها بدون مشقات وصعوبة كبيرة . تذهب الى افريقية تحمل اليها حاصلات اليمن ، ثم تعود اليها وهي محملة بالبضائع الافريقية الثمينة ، مثل الأخشاب والعاج ، وببضاعة ثمينة أخرى: بضاعة حية تتحرك وتنطق ، هي الزنوج . يستوردونهم شراءً من أسواق النخاسة ، أو اقتناصاً من السواحل ، لحاجة البلاد الى استخدامهم في الانتاج وفي أداء الخدمات التي يأنف العربي عادة من القيام بها . وقد كان هذا الوارد عصباً حساساً في الانتاج في ذلك العهد .

ولم ترد في كتابات المسند التي عثر عليها في جزيرة العرب وياللأسف معلومات عن أسفار العرب البحرية ، لا الى سواحل افريقية ولا الى سواحل الهند وجنوب ايران . ولكن وجود السبئيين في الساحل الافريقي وتكوينهم حكومة هناك ، ثم احتلال الحبش للعربية الجنوبية الغربية مراراً ، وذهاب المسلمين الأوائل مهاجرين الى الحبشة ، وحث الرسول لهم على الذهاب الى أرض الحبشة ، لأن بها ملكاً

---

١ Periplus, 7, 10, 14, 17.

لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق[1] . وذهاب المسلمين الى مرسى (الشعيبة) للسفر منه بسفن التجار اليها ، كل ذلك دليل على وجود اتصال بحري بين افريقية واليمن .

وقد أشرت في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، الى عثور العلماء على كتابات معينة في جزيرة (ديلوس) Delos من جزر اليونان ، وهي نصوص ذات أهمية كبيرة بالنسبة الى بحثنا هذا ، فإنها تربنا وصول المعينيين الى هذه الجزيرة وإقامتهم فيها ، واتجارهم مع اليونان ، ومن يدري ، فلعلّهم كانوا قد توغلوا شمالاً أيضاً ، ونزلوا بلاد اليونان،وتاجروا هناك ، ومع شعوب أوروبة في ذلك العهد . وقد ورد في نص من هذه النصوص : (هنا) أي (هانىء)،و(زيد ايل) من (ذي خذب) ، نصبا مذبح ودّ وآلهة معين بـ (دلث) ، أي بـ (ديلوس). وقد كتب بالمسند ، وباليونانية ، وقد جاء في النص اليوناني : « يا ودّ إلـه معين يا ودّ » . وفي هذا النص والنصوص الأخرى دلالة على وجود جالية معينية في هذه الجزيرة وسكناها فيها ، وعلى تعلقها بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها . ومن يدري ؟ فلعلّها كانت على اتصال ببلادها ، وكانت تتجر معها ، فترسل اليها حاصلات اليونان ومنتوجات أوروبة، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وافريقية والهند .

وقد أشرت في ذلك الجزء أيضاً الى عثور العلماء على كتابة معينية بمصر ، كتبت حوالى سنة (٢٦٣) قبل الميلاد ، وذلك بالجيزة . وهي كتابة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة ؛ لأنها تشير الى وجود المعينيين بمصر في ذلك العهد . وعن وجود صلات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البرّ والبحر . وهي تتحدث عن رجل اسمه (زيد بن زيد ايل) من (آل ظبرن) ، اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد (ابيتت الالت مصر) ، أي (بيوت آلهة مصر) ، أو (معابد آلهة مصر) بـ (امررن وقلمتن) (قليمتن) ، أي بـ (المرّ والقليمة) . ويقصد بلفظة (قليمتن) (قلمتن) ، ما يقال له « Calamus » في الانكليزية و « Kalamus » في الألمانية،ويرادبه ما يقال له قصب الذريرة أو قصب الطيب . و (امررن) ، بمعنى (المرّ) ، وهو معروف مشهور

---

١ الروض الانف (١/٢٠٤) .

عند العرب ، ودواء كالصبر مرّ ، استعمل في معالجة أمراض عديدة[1] . وقد كان ذلك في شهر (كيحك) من السنة الثانية والعشرين من حكم الملك (بطلميوس)[2].

وقد ذهب(رودوكناكس) « Rhodokanakis » ناشر النص المذكور ومترجمه الى احتمال كون (زيد ايل) كان كاهناً في معابد مصر ، ولو كان من أصل غير مصري ، فقد كان المصريون قد تساهلوا في هذا العهد – كما يرى – فسمحوا للغرباء بالانخراط في سلك الكهان وخدمة المعابد ، وتساهلوا مع (زيد ايل) هذا فأدخلوه في طبقة(اويب) « Ueeb » وانتخبوه كاهناً ليضمن لهم الحصول على المرّ والقليمة بأسعار رخيصة لاستيراده اياها باسمه ومن موطنه مباشرة من غير وساطة وسيط[3] .

وقد ذهب (رودوكناكس) أيضاً الى ان (زيد ايل) ، كان يستورد المرّ والقليمة لا لحسابه الخاص ومن ماله ، بل لحساب المعابد المصرية ومن أموالها . فلم يكن هو إلا وسيطاً وشخصاً ثالثاً يتوسط بين البائع والمشتري ، يشتري تلك المادة ويستوردها باسمه ، ولكنه يستوردها للمعابد ولفائدتها . وهو لا يستبعد مع ذلك احتمال اشتغاله هو لنفسه وعلى حسابه في التجارة ، يستوردها لنفسه ويبيعها في الأسواق ، ويتصرف بالأرباح التي تدرها كما يريد . وهو لا يستبعد أيضاً احتمال مساعدة المعابد له بتجهيزه بالمال لتقوية رأس ماله ، أو انتشاله من خسارة قد تصيبه .

وقد أصيب هذا التاجر كما يظهر من هذا النص بخسارة كبيرة في شهر (حتحر) ربما أتت على كل ما كان يملكه ، فهبت المعابد المصرية لإنقاذه ، واعادة اعتباره المالي اليه ، بإسناده بتقديم أقمشة الـ (بص) (بوص) اليه . وقد أخذها وصدرها في سفينته التي يستورد بها المرّ والقليمة الى الأسواق ، فربح منها . واستورد المرّ والقليمة وأعاد الى المعابد ثمن ما أخذه منهـا من تلك السلعة ، وأدى ديونه في شهر (كيحك) . وقد عاد اليه اعتباره وأنقذ من تلك الضائقة الماليـة التي حلت

---

١ تاج العروس (٣/٥٣٧) ، (مرر) .

٢ REP. EPIGR. 3427, Tome, V, p. 151, Rhodokanakis, Die Sarkophaginschrift Von Gizeh, S. 113, in Zeitschrift für semitistik, Bd., II, 1924, Conti Rossini, Chrest. Ar. Merid., 1931, p. 86.

٣ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd., 2, 1924, S. 116. ff.

به بمدة قصيرة لا تتجاوز شهراً كما يرى ذلك (رودوكناكس)[1] .

ولم يذكر النص اسم الجهة التي ذهبت السفينة اليها ، ولا اسم الموضع الذي أرسل (البوص) اليه ، ولا اسم المكان الذي استوردت القليمة وكميات المرّ منه.

و (البص) (البوص) ، هو (البز) في عربيتنا . والبز : الثياب ، وقيل ضرب من الثياب ، وبائعه البزاز[2] . ويظهر انه كان من الأصناف الجيدة ، التي امتازت مصر به ، فاشتهر في الخارج ، فكان يُصدَّر إلى الأسواق الخارجية . وهي لفظة معربة ، عربت من أصل يوناني هو « Vissas » ، ومعناه نسيج كتان ، ونسيج من كتان هندي رقيق جداً[3] .

لقد كانت حكومة البطالمة قد احتكرت صناعة نسيج الكتان وتجارة البزّ (بوص) ، وبيع المرّ والبخور والعطور والصبر وغير ذلك . وكانت تنتهج في خطتها الاقتصادية نهج احتكار الدولة بيع السلع الرائجة المهمة . نعم ، سمحت للتجار المستوردين باستيراد ما يشاءون من المر والبخور واللبان والصمغ والصبر وما شاكل ذلك من الخارج ، ولكنها لم تسمح لهم ببيعها أو تحويلها أو تغيير شكلها من غير استئذان الحكومة وموافقتها، ذلك لأنها تعدها من المواد الداخلة في دائرة الانحصار والاحتكار (Statesmonopol) ، والتابعة لمراقبة الحكومة .

أما نسج (البوص) (البص) البز ، فقد أودع أمره إلى المعابد ، تشرف عليه وتدير صناعته ، ورثت ذلك من عهود سبقت أيام البطالمة،وذلك في مقابل السماح لها بأخذ ما يحتاج الى استعماله في المعابد أو لحاجات رجال الدين الخاصة ، وتسليم بقية ما ينسج الى دوائر الحكومة المختصة لبيعه للناس[4] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية واللاتينية أن العرب كانوا يملكون سفناً في البحر الأحمر وفي البحر العربي وفي الخليج ، إلا أن سفنهم لم تكن ضخمة ، ولهذا لم تتمكن من مجابهة السفن الرومانية والسفن اليونانية حين نزلت تلك البحار . لأنها كانت أضخم منها ، وكانت ذات أربعة صفوف من المجاذيف ، كما أنها كانت سريعة الحركة وذات مرونة في الاستدارة وفي الالتفاف وفي الرجوع والانتقال ،

---

١ Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, Bd. 2, 1924, S. 117.

٢ تاج العروس (٤/٧) ، (بزّ) .

٣ غرائب (٢٥٦) .

٤ المصدر نفسه (ص ١١٥ وما بعدها) .

وذلك بفضل أشرعتها التي طوّرت تطويراً كبيراً ليناسب تطورها هذا فعل الرياح بها ، ولتتمكن من السير مع الأهوية أو ضدها ، وبسبب آخر هو تطوير هندستها بصورة مستمرة ، لتجاري التيار ولتقطعه بكل سهولة ، دون أن يعيقها أو يلحق أذى بها . وبفضل هذا التطوير تمكنت تلك السفن من التغلب على السفن العربية، ومن ملاحقة لصوص البحر (القرصان) الذين كانوا يتحرشون بالسفن ليأخذوا ما فيها ، بسفنهم الصغيرة البدائية،وبذلك صار في مستطاع السفن اليونانية والرومانية دخول الموانىء العربية والموانىء الافريقية ومن الوصول الى الهند .

وقد أشار (أغاثرشيدس) الى هذا التفوق ، كما أشار اليه (سترابو) في أثناء كلامه على حملة (أوليوس غالوس) وعن خطأه في تقدير موقفه من البحرية العربية . فقد ذكر (سترابو) أن (أوليوس غالوس) ظن أن للعرب سفناً كبيرة في البحر وأنها ستظهر أمام سفنه وستقاومه ، لهذا أمر ببناء سفن طويلة لمجابهة تلك السفن ، مع أن العرب قوم تجارة وبيع وشراء ، ولم يكونوا أمة حرب ، لا في البحر وحده ، بل في البرّ أيضاً . ومع ذلك بنى ما لا يقل عن ثمانين سفينة حربية ، منها سفن ذوات صفّين من المجاذيف ومنها ذوات ثلاثة ، ومنها ذوات صف واحد ... ولما أدرك خطأه ابتنى مئة وثلاثين سفينة للحمل ، ركب فيها نحو من عشرة آلاف من المشاة .. وبعد أن خسر كثيراً من سفنه ، غرق عدد منها وغرق من فيها من بحارة ، وذلك بسبب صعوبة الملاحة لا بمقاومة من عدوّ[1] .

ولا نجد في كتب أهل الأخبار ما يشير الى وجود قوى بحرية عربية ، بل نجد فيها أن سفن الروم كانت هي التي تمخر عباب البحر الأحمر وكانت هي المهيمنة عليه وأنها كانت تصل الى سواحل افريقية وتذهب الى الهند . ونجد فيها أن سفن الحبشة كانت تأتي (الجار) و (الشعيبة) ، وموانىء عربية أخرى لتتاجر معها ، وأن سفن الساسانيين كانت تهيمن على مياه الخليج العربي والبحر العربي،ثم نجد في روايات أهل الأخبار عن كيفية احتلال الحبش لليمن واحتلال الفرس لها وعن هجرة المهاجرين الأولين من مكة الى الحبشة ووصفهم لكيفية بناء الكعبة وأخذهم لخشب سفينة رومية ما يؤيد أن الجاهليين لم يكونوا يملكون سفناً

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٢٦٤) لسنة ١٩٥٢ م .

كثيرة كبيرة قوية في ذلك العهد ، وأنهم كانوا قد تركوا البحر الى غيرهم منذ عهد قبل الاسلام .

ويعود تفوق سفن اليونان والرومان على السفن العربية في البحار الى ما قبل الميلاد . لا بل نستطيع أن نرجع هذا التفوق الى ما قبل أيام اليونان والرومان ، نستطيع أن نرجعه الى أيام المصريين . فقد ورد في أخبارهم انهم أرسلوا سفنهم الى البحر الأحمر فوصلت الى السواحل الافريقية ، وانهم كانوا قد حفروا قناة لتصل بين نهر النيل والبحر الأحمر ، فيكون في وسع السفن القادمة من البحر الأبيض من اليونان أو من ايطاليا أو من أي مكان آخر دخول نهر النيل والمرور من القناة الى البحر الأحمر ثم الى المحيط للاتجار مع أسواق البلاد الحارة، والعودة من تلك الأسواق بحاصلات آسيا وافريقية الى اوروبة . وهو مشروع يدل على ذكاء وحنكة في السياسة ، مهّد الدرب لمشروع قناة السويس الحديث .

ولما استولى (دارا) (داريوس) على مصر ، قرر اعادة ذلك المشروع المصري القديم ، الذي كان قد اندثر وأكلته الرمال . بأن أمر بشق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر عن طريق الفرع البلوزي أحد فروع النيل القديمة ، بالقرب من الزقازيق ، مخترقة وادي الطميلات ثم البحيرات الى السويس . وهو مشروع يدل على ذكاء ذلك الملك وادراكه لأهمية ربط البحرين بطريق مائي ، والى ما فيه من فوائد في السياسة وفي الاقتصاد وفي الناحية العسكرية .

ووضع (الاسكندر) الأكبر مشروعاً خطيراً آخر يفوق كل ما وضع من قبله من مشاريع . فقد وضع خطة السيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب ، وذلك بالاستيلاء عليها ، ويكون بذلك ملك أكبر انبراطورية عرفت حتى ذلك اليوم تمتد من الهند الى مصر وما وراء مصر من أرضين[1] . وقد كلف قوّاده بالالتفاف حول جزيرة العرب ، وباشروا بتنفيذ الأمر بالفعل ، وقد رأينا قائده (نيرخوس) « Nearchus » على رأس أسطول ضخم ، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد . وقد رأينا كيف قرر الإحاطة بجزيرة العرب من الجنوب والغرب بالسيطرة على سواحلها وانشاء أسطول يمخر المياه المحيطة بها ، بعد أن هيمن على السواحل الشرقية . وقد استعان

---

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

نفسه بخبرة الفينيقيين وعلمهم بالبحر . نقلهم الى هذه المياه وكلفهم بنـــاء السفن له ، وبإدارتها له . ولو قدر للاسكندر أن يعيش طويلاً لتحقق مشروعه الضخم، ولكن القدر قضى عليه مبكراً ، فمات مشروعه معه ؛ ولم يكن لخلفائه ما كان لسيدهم من عزم ، فتركوا المشروع ، ولم يتحمسوا له[1] .

وقد أدرك البطالمة قيمة القناة القديمة التي كانت تربط النيـــل فالبحر المتوسط بالبحر الأحمر ، فأمر (بطلميوس الثاني) (١٨٥ — ١٤٦ ق. م.) بإعادتها ، ومكن بذلك تجاره من دخول البحر الأحمر ومن نقل التجارة من أسواقها الأصلية الى مصر ، ومنها الى أسواق اليونان والرومان وسائر بلاد أوروبة بالطرق المائية ، وضبط بذلك الممر المائي العالمي القديم ، هذا الممر الـذي فتح ذهن (دلسبس) فيما بعد فجعله يفكر في موضع أصلح رآه في المكان الحـالي المعروف بـ (قنـــاة السويس) القناة العالمية التي تلعب اليوم دوراً خطيراً في الاقتصاد العالمي وفي السياسة الدولية والموقف الحربـي للدول .

وعيّن البطالمة موظفين خاصـــين مهمتهم الإشراف على إدارة التجارة البحرية وسير السفن . فنجد في كتابة تعود الى سنة (١٣٠) قبل الميلاد إشارة الى موظف كان مسؤولاً عن سير السفن وعن الطريق الصحراوية الممتدة الى قفط ، ونجـــد أخباراً تعود الى ما بين سنتي ١٢٠ و ١١٠ قبل الميلاد تتحدث عن سفـن كانت تسير بين مصر والهنـــد ، كما نجد فيها وفي نصوص تعود الى عهود متأخرة عن هذه اشارات الى وجود موظفين مسؤولين عن البحرين الأحمر والهندي[2] .

وقد كان لوقوف (هيبالس) « Hippalus » ، وهو أحد اليونان أو الرومان على سرّ الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن وفي تقصير الوقت في قطع المسافات ، وفي تمكينها من الابتعاد عن أخطار السير في محاذاة السواحل أهميـــة كبيرة في تطوير فن الملاحة الأوروبية بالنسبة لذلك العهد[3] . ويمكن اعتبار وقوف هـــذا الملاح على هـــذا السرّ من أهم الأحداث البارزة التي حدثت في ذلك العهد والتي مكنت الغربيين من التوفق في البحر بالنسبـة لتلك الأيام . أضف الى

---

١ Arrianus, Anabasis, VII, 19, 20.

٢ حوراني (ص ٦٦) .

٣ Pliny, VI, 26, Tarn, The Greeks in Bactria and India, p. 366.

ذلك أن الذين خبروا البحر وعركوه من بعده أضافوا ما استفادوه من فنه ومن علم من تقدم عليه علماً آخر مكن البحارة البطالسة ثم الرومان الذين جاؤوا من بعدهم فحكموا مصر ، ثم اليونان من السيادة على البحار ومن انتزاع المغانم من التجار العرب ومن غيرهم ومن إلحاق ضرر بالغ بهم ، وبذلك وضعوا لمن جاء بعدهم من دول أوروبة خطط السيطرة على البحار وعلى العالم القديم .

ويعدّ القيصر الروماني (أغسطس قيصر) من أهم القياصرة الذين وجهوا أنظارهم نحو الشرق ، ونستطيع ان نقول انه خليفة (الاسكندر الأول) في هذا الباب ، ومن أساتذة (نابليون) في خططه العسكرية الرامية الى السيطرة على الشرق . لقد نوى الاستيلاء على بلاد العرب ، وربما على ما وراء بلاد العرب من أرضين ، وكانت غايته من هذه النية — كما قال سترابو — « إما ان يسترضي العرب ، وإما ان يخضعهم ، كما انه فعلت في نفسه الروايات الشائعة منذ القدم ان العرب قوم واسعو الثراء ، وانهم يستبدلون الفضة والذهب بعطرهم وحجارتهم الكريمة ، دون ان ينفقوا مع الغرباء ما يحصلون عليه في مقايضاتهم التجارية . فأمل أحد أمرين : إما ان يحصل على أصدقاء موسرين ، وإما ان يتغلب على أعداء موسرين »[1] .

واذا كان (أغسطس) قد أخفق في تحقيق مشروعه في احتلال جزيرة العرب ، فإنه لم يهمل ناحية الاستفادة من البحار ، فشجع الملاحين ، وزاد عدد السفن الذاهبة الى الهند ، وقد كان عددها لا يزيد على عشرين سفينة في السنة الواحدة قبل أيامه ، فارتفع عدد ما يصل الى الهند منها الى ما لا يقل عن (١٢٠) سفينة في السنة الواحدة[2] . وقد أقام اليونان والرومان معبداً في موضع « Mauziris » على ساحل الـ (مالابار) في أيام (أغسطس) ، ووجود هذا المعبد في هذا الموضع دليل على المدى الذي وصل اليه التجار اليونان والرومان في بلاد آسية ، وعلى مقدار تشجيع القيصر لأولئك التجار[3] .

وبدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني البضائع الثمينة ، تأتي اليه الى أسواق مصر أو بلاد الشأم محملة بسفن عربية أو على ظهور جمال القوافل كما كان

---

١ الصفحة (٢٦٤) من المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة « ١٩٥٢ م »

٢ حوراني (ص ٧٥) . Strabo, 17, I, 13.

٣ حوراني (ص ٧٥) .

ذلك في الغالب ، وهي بأسعار عالية ، إرتاد هو البحر الأحمر ، ومنـــه المحيط الهندي الى سواحل افريقية أو سواحل العربية الجنوبية أو الهند فما وراءها، يشتري من موانئها وأسواقها ما يريـــد ، بأسعار رخيصة جداً بالقياس الى تلك الأسعار التي كان يدفعها للتجار الموردين في أسواق مصر أو أسواق بلاد الشأم ، فاستفاد هو ، واستفادت حكومته منه ، وخسر التجار العرب بوصول هـؤلاء التجار الى تلك الأسواق ومنافستهم لهم خسائر فادحة ، أوجدت خللاً في الحيـاة الاقتصادية للدول العربية ، وضرراً عاماً في جميع نواحي الحياة الأخرى .

وطالما تشكى الرومان واليونان من فداحة الأرباح والضرائب التي كان يفرضها التجار العرب عـــلى البضائع المرسلة اليهم ، والتي كانوا يحتاجون اليها ويشترونها بأي ثمن كان . وقد ذكر (سترابون) الجغرافي الشهير في جملة الأسبـاب التي حملت القيصر (أغسطس) على إرسال حملته الشهيرة ، هو ثراء أهل تلك البلاد، وحصولهم على أرباح مفرطة من الغرباء وفي ضمنهم الرومان واليونان من اتجارهم معهم ، ومن تحكمهم في وضع الأسعار ، دون أن يعطوا أولئك التجـار والبلاد التي يحملون تجارتهم اليها شيئاً[1] .

وقد كان للأحداث السياسية ، في الانبراطوريتين الرومانية واليونانية أثراً كبيراً في حالة الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي . ففي أيام الفتن والاضطرابات وحدوث القلاقل ، لم يكن في وسع أصحاب السفن الرومان أو اليونان التوغل في البحار البعيدة عن مناطق نفوذ الانبراطوريتين ، لضعف وسائل حماية السفن التجارية وحماية التجار والمستعمرات العديدة المقامة على السواحل . ولهذا نجـد (سترابو) يذكر أنه قبل أيامه لم تكن هنالك سفن كثيرة تجتاز البحر الأحمر ، فقد كان كل ما يرسله الرومان من السفن لا يزيد على العشرين سفينة ، تجتاز هذا البحر، فتصل الى ما وراءه في المحيط[2] .

وأخذ التجار اليونان والرومان يقصدون سواحل افريقية وبلاد العرب والهند ، ويقيمون في موانئها للاتجار . وقد عثر على نقود يونانية ورومانية في مواضع متعددة من هذه السواحل ، كما عثر فيها على آثار معابد ومبانـــي تشير الى أصل يوناني

---

١ راجع الترجمة المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي (٢/٧٦٣) ، (١٩٥٢ م) .

٢ Strabo, 17, I, 13.

وروماني ، كذلك نجد أخباراً لأشخاص يونانيين ورومانيين ذهبوا الى أرض سبأ للاتجار .

ولم يجد الرومان ولا اليونان مقاومة تذكر حينما ولجوا البحر الأحمر والمحيط الهندي . لقد كانت سفنهم أكبر وأقوى من سفن العرب ، وأحدث منها،وأقدر على الحركة والمقاومة . تتحمل صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا مما يقلل بالطبع من أجور النقل ، ومن أخطار الغرق والاصطدام بصخور السواحل ، ومن التعرض للصوص البحر ، ويخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، ويزيد في عدد المستهلكين .

وقد رأى البحر الأحمر سفناً أقوى وأضخم من السفن العربية الصغيرة ومن سفن سكان سواحل افريقية : رأى سفناً تسير بقوة أربعة صفوف من المجاذيف « Quadriremes » [1] أخذت تتعقب لصوص البحر،وتحمي سفن اليونان والرومان ، وتحمي المستعمرات التي أنشئت على سواحل البحر الأحمر لإيواء تلك السفن،وتقديم المساعدات الى أصحابها ، وشراء السلع من القبائل الساكنة على مقربة منها ، وسرعان ما صارت أسواقاً للبيع وللشراء ، يبيع فيها هؤلاء التجار الأجانب ما يأتون به من تجارة من حوض البحر المتوسط ، ويشترون منهم ما عندهم من مواد أولية ، يقبل عليها أهل مصر واليونان والرومان وسكان البحر المتوسط . وقد أثرت هذه الأسواق بالطبع في مصالح التجار العرب الذين كانوا يقومون بمثل هذه الأعمال ، وألحقت بهم ضرراً ولا شك .

ولوعورة الساحل العربي على البحر الأحمر ولكثرة صخوره المؤذية للسفن ، ولكثرة لصوص البحر فيه ، ولأسباب أخرى تجنبت السفن الرومانية واليونانية هذا الساحل قدر إمكانها ، فلم ترسُ به إلا في المواضع الآمنة التي أمنت النزول بها ، وسيطرت عليها بوضع حاميات عسكرية بها ، أو بعقد محالفات وعهود ومواثيق مع سكانها . وقد كان ميناء (مخا) « Muza » الميناء المفضل لها . قصدته للاتجار

---

١ حوراني (ص ٥٩) ، Agatarchides, I, 83, 85, 88.

ولتموين نفسها بالماء والغذاء [1] . وقد كان في استطاعة سفن تلك الأيام السير على مبعدة من ذلك الساحل ودون توقف حتى تصل الى الميناء المذكور ، أو الى ميناء عدن « Arabia Eudaemon » ، وبذلك تجنبت السفن المخاطر والمهالك التي كانت ستتعرض لها فيما لو سارت في محاذاة الساحل العربي .

ويظهر أن موضع (لويكه كومه) ، أي (القريـة البيضاء) كان ميناءً معروفاً في القرن الأخير قبل الميلاد ، ففيه هبط (أوليوس غالوس) سنة (٢٥ أو ٢٤) قبل الميلاد في حملته التي أمر القيصر (أغسطس) بإرسالها على اليمن . ولو لم يكن من المرافىء الحسنة الصالحة لرسو السفن لما نزل به الجيش الروماني . ويكتنف تأريخه الغموض ، فلم يرد اسمه كثيراً في كتب اليونان والرومان ولا في كتب الإسلاميين . ويقال إنه ظل قائماً حتى نهاية القرن الثالث بعـد الميلاد[2] . ولعلّه (الحوراء) ، مرفأ سفن مصر قديماً ، وقد ذكره أصحاب الرحل[3] .

و (الجار) ، فرضة أهل المدينة ، ترفأ اليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين والبحرين ، ومحذائها جزيرة في البحر ميل في ميل يسكنها التجار[4]. فهي من الموانىء التي كان يقصدها التجار من السواحل المقابلة ومن سواحل افريقية الشرقيـة والمحيط الهندي . وذكر ان النـاس كانوا لا يعبرون الى الجزيرة إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة . وان بينها وبين المدينة يوم وليلة ، وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل (الجحفة) نحو ثلاث مراحل[5] . وقد عرفت تلك الجزيرة بـ (قراف) ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار[6] .

و (الشعيبة) من المراسي القديمة في الحجاز ، وهي أقدم من جدة . وهي خور أمين تقصده السفن لتتزود بما تحتاج اليه من زاد وماء ، ولتفرغ فيه ما تأتي

---

١ « المخا : موضع باليمن بين زبيد وعدن ، بساحل البحر . وهو مقصود » ، البلدان (٢٠٢/٧) ، « ومخا : مقصورة ، بساحل بحر اليمن تجاه باب المندب ... قـال الصاغاني : ترفأ بمكلئها السفن » ، تاج العروس (٣٢٨/١٠) .

٢ Handbuch, I, S. 114.

٣ تاج العروس (١٦١/٣) ، (حور) .

٤ تاج العروس (١١٢/٣) ، (جار) .

٥ البلدان (٣٥/٣) .

٦ عرام ، أسماء جبال تهامة وسكانها (ص ٣٩٨ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات) ، تاج العروس (٢٢٠/٦) ، (قرف) .

به من شحن من افريقية الى الحجـــاز . وهو مرفأ مكة ومرسى سفنها قبـــل جدة . واليه جنحت سفينة (باقوم) ، التي تحطمت بدفع الريح لها ، فاستعانت قريش في تجديد عمارة الكعبة بخشب تلك السفينة على نحو ما تحدثت عنه في أثناء كلامي على تجديد بناء الكعبة قبل المبعث بقليل[1] . ومنه هاجر المسلمون الى الحبشة في السنة الخامسة من المبعث،حيث وجدوا سفينتين للتجار حملوهم فيها الى الحبشة[2]. ومنه كان يذهب تجار مكة الى افريقية للتجارة قبل الاسلام .

وميناء « Muza » = « MUZA » من موانىء اليمن المهمة على البحر الأحمر[3]، وكان مقصوداً ، وتصل اليه السفن البيزنطية والسفن الواردة من مصر ، ومن هنا كانت تتزود تلك السفن بضائع البلاد العربية ، أو تبيع فيه ما استوردته من مصر أو من سواحل حوض البحر المتوسط . وقد تتزود ما تحتاج اليه من ماء وزاد ، ثم تتجه الى افريقية أو إلى سواحل الهند . وقد كانت به جاليات من اليونان أو من غيرهم مقيمة هناك للاتجار والتعامل مع الوطنيين . وهو ميناء (مخا) المشهور[4]. ويذكر أهل الأخبار ، ان بين (مخا) وبين (باب المندب) ، أي الساحـــل الافريقي المقابل للساحل العربي يومين أو أكثر ، وان باب المندب ، مرسى ببحر اليمن ، وهو اسم ساحل مقابل لزبيد اليمن ، وهو جبـــل مشرف ندب بعض الملوك اليه الرجال حتى قدّوه بالمعاول ، لأنه كان حاجزاً ومانعاً للبحر عن ان ينبسط بأرض اليمن ، فأراد بعض الملوك أن يغرق عدوّه ، فقدّ هذا الجبـــل وأنفذه الى أرض اليمن ، فغلب على بلدان كثيرة وقرى أهلك أهلها وصار منه بحر اليمن الحائل بين أرض اليمن والحبشة والآخذ الى عيذاب وقصير الى مقابـل (قوص) ، والملك هو (الاسكندر)[5] . وبهذه الطريقة أوجد أهل الأخبار لهم تأريخاً لباب المندب ، وحلّوا مشكلة كيفية انفصال افريقية عن اليمن !

وميناء « Arabia Eudaemon » ، هو ميناء (عدن) ، وهو ميناء مهم في ذلك الوقت أيضاً ، ولا يزال يحافظ عـــلى مركزه وأهميته من الوجهة العسكرية

---

١ البلدان (٥/٢٧٦) ، ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، (القسم الاول ص ٤٢ وما بعدها) .
٢ الطبري (٢/٣٢٩) .
٣ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٨/٩٧) .
٤ البلدان (٧/٢٠٢) ، تاج العروس (١٠/٣٣٨) ، (مخى) .
٥ تاج العروس (١/٤٨٢) ، (ندب) .

والاقتصادية [1] . وقد ذكره (بطلميوس) باسم « Arabia Emporion » . وقد كان مركزاً لتبادل السلع الافريقية والهندية والمصرية ، ومكاناً تبحر منه السفن الى الهند ، كما تلتجىء اليه السفن الواردة من تلك البلاد . وقد استولى عليه الرومان في فترات .

ويذكر أنه في حوالى سنة (٣٤٥) ، أسس أحد المبشرين واسمه (ثيوفيلوس) « Theophilus » المعروف بالهندي ، كنيسة في (عدن) « Adane » [2].

وجزائر (فرسان) ، من الجزر التي كان يتاجر أهلها مع الحبشة ، ويذكر (الهمداني) أن سكانهـــا كانوا يعملون في التجارة الى بلاد الحبش ، ولهم في السنة سفرة [3] .

وميناء « Cana » (قنا) ، هو موضع (حصن غراب) (حصن الغراب). وهو سوق اللبان الذي يزرع داخل البلاد ، يؤتى به الى ذلك الميناء على ظهور الجمال ، أو في الأرماث المصنوعة من الجلد ، وفي القوارب . وهو ميناء تجارة كذلك مع مدن الساحل البعيد،مع بعض مدن الهند ، وميناء (عمانه) « Umana » (عمان) والموانىء التي على الخليج [4] . وتقع (قنا) عـــلى مرتفع ، قريب من (ميفع) [5] ، و (ميفع) ، قرية على الساحل ، و (ميفعة) ، بلدة بين (ميفع) و (أحور) ، إلا أنها ليست على الساحل ، بل بينها مرحلة [6] .

وأما ميناء « Moscha » ، فهو (ظفـــار) من أعمال الشحر ، قريب من صحار . وبجبال ظفار (اللبان) ، واليه يحمل ، وبه يقسم ويوزع ، ولا يسمح بحمله الى غيره [7] . وقد ذكر عدد من المؤلفين اليونان واللاتين . وقد ذهب بعض الباحثين الى أنه (مسقط) وأنه « Mosca Portus » [8] . ويذكر أهل الأخبار ،

---

١ البلدان (١٢٧/٦) ، ابن المجاور (١٠٦/١ وما بعدها) .
٢ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٩٨/٨ وما بعدها) .
٣ الصفة (٥٣) .
٤ Periplus, 20. f., 27.
٥ تاج العروس (٣٠٥/١٠) ، (قنا) .
٦ تاج العروس (٥٦٦/٥) ، (يفع) .
٧ جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٣٤٢/٣) ، Glaser, Skizze, II, S. 180, Ptolemy, VI, 7, 10.
٨ Pauly-Wissowa, 31 ter Halbband, 1933, S. 343, Forbiger, Handbuch der Alter Geography, II, S. 757.

أن (ظفار) قرب مرباط ، وتعرف بـ (ظفار) الساحل ، واليها ينسب القسط، وهو العود الذي يتبخر به ، لأنه يجلب اليها من الهند ، ومنها الى اليمن، كنسبة الرماح الى (الخط) ، فإنه لا ينبت به ، وهي قريبة من (الشحر)[1] .

وكان أهل (جرها) « Gerrha » على ساحل الأحساء من أنشط الناس في في التجارة ، يتاجرون في البر والبحر،ويتاجرون مع الهند وسواحل ايران الجنوبية، كما كانوا يتاجرون مع العربية الجنوبية وأرض العراق . وكانوا قوماً مسالمين لا يرغبون في الحروب . فلما أراد (أنطيوخس) « Antiochus » الثالث الاستيلاء على المدينة وذلك في حوالي سنة (٢٠٥) قبل الميلاد ، سألوه الصلح والمهادنة ، « وألا يقضى على ما أعطتهم الآلهة من سلام وحرية أزلين »[2] .

وأما مدينة (أبولوكس) « Apologus » ، فهي الأبلة في الكتب الاسلامية و « Uubulum » في الكتابات الأكادية. وقد كانت من أهم موانىء أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق . تصدر الى الهند حاصلات العراق وبلاد الشأم وآسية الصغرى وأوروبة ، وتستورد منها أخشاب الصندل والآبنوس ومنتجات الهند وسيلان والصين[3] . وقد عرفها أهل الأخبار،فذكروا انها كانت أقدم من البصرة، لأن البصرة ، مصرت في أيام (عمر) ، وكانت الأبلة حينئذ مسالح من قبل كسرى ، وقد كان تجارها يربحون ربحاً عظيماً ، وهي أرض واسعة . قال (خالد ابن صفوان) : « ما رأينا أرضاً مثل الأبلة مسافة ، ولا أغذى نطفة، ولا أوطأ مطيّة ، ولا أربح لتاجر ، ولا أحفى بعابد »[4] .

وهناك موانٍ عديدة أخرى ، ذكر المؤلفون اليونان واللاتين أسماءها ، وقد تحدثت عنها في الجزء الثالث من كتابي : (تاريخ العرب في الاسلام) ، وشخصت مواقعها قدر الامكان . وقد كان لا بد من ان يكثر عدد الموانىء في تلك الأيام، فسفن ذلك العهد لم تكن ضخمة كسفن هذا اليوم ، ولم يكن في استطاعتها لهذا الابتعاد عن السواحل كثيراً ، ولا السير الى مسافات شاسعة ، إذ كان لا بد لها

---

١ تاج العروس (٣/٣٧٠) ، (ظفر) .
٢ Polybius, Historia, Book, 13, Chapter 9.
٣ Pliny, VI, 31, 32, Dio Casius, Roman History, 68, 28, 29.
جواد علي ، تأريخ العرب قبل الاسلام (٨/١٠٠) .
٤ تاج العروس (٧/٢٠٠) ، (ابل) .

من التزود دوماً بالماء والغذاء ، ولا سيما بالنسبة الى السفن الصغيرة ، فأخذت ترسو في مراسي كثيرة لتموين نفسها ولإراحة أصحابها ، من عناء البحر ، ولم تتخلص السفن من تعدد الرسو في الموانى إلا بعد تحسن صناعة بناء السفن، وظهور السفن البخارية ، فانتفت حاجتها اليها ، وقد قضى هذا التحسن على أكثر الموانى، فماتت وذهبت مع العصور التي ولدت فيها .

وقد تتجه السفن من ميناء (مخا) الى السواحل الافريقية مخترقة مضيق المندب، وقد تتجه الى (عدن) ، ثم تواصل سيرها نحو السواحل الافريقية ، بعد أن تتموّن بما تحتاج اليه من ماء وزاد ، أو تتجه الى ميناء (أكيلا) « Acilla » ، الواقع على مقربة من (رأس الخيمة) « Massandum » ، للإقلاع منه الى الهند[1] . وهو أقرب طريق يوصل العرب الجنوبيين وعرب سواحل عمان الى تلك البلاد .

ولما تحسنت هندسة بناء السفن صار في امكانها قطع مسافات أبعد من دون حاجة الى الرسو في موانىء عديدة ، وصارت السفن القادمة من مصر ترسو في ميناء (عدن) رأساً ، وبعد أن يستريح أصحابها يتجهون الى سواحل افريقية أبعد مما كانوا يصلون اليها في السابق ، أو يتجهون نحو الهند . وبذلك قصر الوقت وقلت كلفة الأسفار ، وصار في وسع اليونان والرومان دخول الأسواق الأصلية رأساً ، يأخذون منها ما يريدون ويبيعون فيها ما عندهم دون حاجة الى وسيط . وكانت السفن اليونانية والرومانية تتحمل من صعاب البحر ، وتقاوم الأعاصير والظروف القاسية الشديدة ، وتتسع لاستيعاب أعداد كبيرة من الرجال ، وتحمل حملاً كبيراً بالقياس الى السفن العربية . وهذا ما قلل بالطبع من أجور النقل ، وخفض من أثمان البضائع في الأسواق ، وزاد في عدد المستهلكين .

ولكن السفن اليونانية والرومانية جوبهت مع ذلك بلصوص البحر الذين كانوا يتعقبون السفن ، ويغيرون عليها عند تقربها من السواحل . كان هؤلاء اللصوص قد ابتنوا سفناً لهم ، فإذا رأوا سفناً يونانية أو رومانية أو غيرها وقد وقعت في قبضة الأعاصير ، أو اصطدمت بالصخور البحرية أو كانت على مقربة منهم وفي مناطق يمكن وصولهم اليها ، أغاروا عليها وأخذوا منها كل ما تقع أيديهم عليه .

---

١ Pliny, VI, 32, Glaser, Skizze, II, S. 186.

ولا ينجو منها أحد ، حتى أصحابهـــا يؤخذون أسرى ، فيباعون في الأسواق خولاً .

ولحماية السفن والتجار ، أنشأ الرومان واليونان قوة بحرية حربية ، تولت حراسة السفن التجارية وحماية المستعمرات التي أقاموها على سواحل هذه الطرق المائية العالمية المهمة . ولم تكن المسافات بين المستعمرات الساحلية قصيرة ، ليكون في الامكان الدفاع عنها والتعاون فيما بينها . وللتغلب على هذا الضعف ولحمايتها حمايـة قويـــة زوّدوها بما تحتاج اليه من مياه عذبة ومن أطعمة ومن جنود لصد غارات المعتدين. وبذلك هيمنوا على البحار : وضبطوا البحر الأحمر بصورة خاصة، ولم يبق للعرب من مجال في التجارة العالميـــة إلا بسلوك الطرق البرية الموصلة الى بـــلاد الشأم والعراق .

وقد تكون في إشارة (بليني) « Plinus » الى وجود جاليات يونانية على سواحل بلاد العرب في مواضع غير بعيدة عن موضع « Attevae » الـــذي هو (عدن) ، ايماءة الى وجود مستعمرات يونانية على سواحل جزيرة العرب أنشئت قبل أيامه لضبط الأمن في البحار وللاتجار مع العرب وبسط نفوذ الروم عليهم . وفي جملة تلك الأماكن التي ذكرها : « Arethusa » و « Larisa » و « Chalcis » . ذكر انها كلها كانت قد خربت بسبب الحروب ، مما يدل على انها كانت قـد أقيمت قبل أيامه بزمان[1] .

وقد ضمنت تلك القوة البحرية الضخمة للرومان السيطرة على البحر الأحمر وعلى البحر العربي، واستطاعت احتلال (عدن) . ففي أيام (كلوديوس) « Claudius » (٤١ — ٥٤ م) كان هذا الميناء في قبضة الرومان[2] . وكانت به حامية رومانية. وتمكن هذا القيصر الذي كانت عدن خاضعة له في أيام مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأريتري) ، أو أي قيصر آخر ، قد يكون « Coligula » وقـد يكون (طبريوس) « Tiberius » ، من عقد معاهدة مع الملك (كرب ايل) « Charibael » (ملك سبأ وذو ريدان) في ذلك الـــوقت . ولم يشر مؤلف

---

١ Pliny, 6, 159, Die Araber, I, S. 120.

٢ Wissmann, Geogr. Grundlagen, 107, Grohmann, Arabien, S. 28, Periplus Maris Erythraei., 26.

الكتاب المذكور الذي لا نعرف اسمه اليوم الى اسم القيصر ، بل اكتفى بذكر اللقب فقط ، وهو (قيصر) ، وهو كما نرى لقب عام ، يطلق على كل من يحكم انبراطورية الرومان . وقد ذهب بعض الباحثين الى عدم امكان التفكير في القيصر (أغسطس) ، والى احتمال كونه قيصراً آخر ، وقد يكون بالاضافة الى من ذكرته .(نيرو) أو (تراجان) ، أو (سبتيموس سويرس) (سبتيميوس سفيروس) « Septimius Severus »[1] .

واهتم (تراجان) بأمر التجارة البرية والبحرية ، جعل أرض النبط ولاية خاصة دعاها : (الكورة العربية) أو (المقاطعة العربية) « Arabia Provincia » وذلك سنة (١٠٦) للميلاد . واهتم بالطرق البرية ، فأصلح طريقاً مهمة تمر من دمشق الى أيلة فبصرى والبتراء ، وهي طرق قديمة ومعروفة ، بالنسبة للاتجار مع بلاد العرب ، وكانت في حاجة الى عناية واصلاح ووضع معالم . واعتنى بميناء (أيلة) فعمره ووضع ادارة (كمركية) فيه ، وجعله من الفرض المهمة في خليج العقبة ، بل والبحر الأحمر . وأصلح القناة القديمة بعد أن تراكمت فيها الأتربة حتى سدّت مجراها ، وحفر قسماً جديداً من طرفها الغربي ، أوصلها بالنيل عند (بابلون) « Babylon » ، موضع مصر القديمة . وبذلك سهل الاتصال بالفرع الغربي للنيل المؤدي الى الاسكندرية ، وبرز ميناء (القلزم) « Clysma » حيث التقت قناة تراجان بالبحر الأحمر[2] .

وعثر على كتابة دوّنها قوم من أهل تدمر ، اشتغلوا بالملاحة في البحر الأحمر، أشادوا بفضل القيصر (هدريان) (هدريانوس) (١١٧ – ١٣٨ م) عليهم[3] . وتدل هذه الكتابة على اشتراك التدمريين في الملاحة ، مع انهم من أهل مدينة صحراوية ، عماد حياتها التجارة بالبضائع الواردة اليها بالطرق البرية .

وقد توغل الملاحون في أيام أسرة (انطونينوس) « Antonines » (٩٨–١٩٢م) حتى أدركوا موضع (رهابتا) على مقربة من (زنجبار) في السواحل الافريقية، ووصلوا الى سواحل الصين في آسية. وهذا هو سر وجود أسماء مواضع في جغرافيا

---

١ Die Araber, I, S. 43.

٢ حوراني (٨٦) .

٣ Dio Casius, 68, 14, Ptolemy, IV, 5, 14.

(بطلميوس) (في حوالي ١٥٠ – ١٦٠ للميـــلاد) لم ترد في كتب المؤلفين السابقين الذين عاشوا قبل هذا الجغرافي اليوناني الشهير . وفي جملة ما ذكره هذا الجغرافي أسماء مواضع عديدة في جزيرة العرب ، لم يشر اليهـــا المؤلفون اليونان والرومـان السابقون ، وأوصاف أدق وأصدق من الأوصاف التي ذكروها ، وفي ذلك دلالة على زيادة علم اليونانيين والرومان في هذه الأيام بأحوال الشرق نتيجة زيادة اختلاطهم واتصالهم بالشرقيين .

ومعارفنا بأخبار الملاحة في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي في العهد البيزنطي، أي العهد الذي أصبحت فيه القسطنطينية فيه عاصمة بدلاً من رومـــا (٣٣٠ م) ، قليلة ضحلة ، لأن أكثر المؤرخين الذين عاشوا في هذه الحقبة ثم ما بعدهـــا الى ظهور الإسلام إنمـــا اهتموا بالأمور الدينية ، وكانوا إذا ما تطرقوا الى النواحي الجغرافية أو التاريخية المعاصرة للبلاد الخارجة عن نطاق الانبراطوريـــة البيزنطية أو نفوذها السياسي ، أوجزوا القول إيجازاً لا يعطى القارىء رأياً في الأحوال العامة وفي ضمنها التجارة والملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي .

لقد أثرت الأوضاع السياسية القلقة التي حدثت في الدولة البيزنطية ، والحروب المتوالية بين الساسانيين والبيزنطيين ، أثراً خطيراً عـــلى البحرية البيزنطية في البحر الأحمر وفي المحيط الهندي ، إذ حدّت من توسعها ، وقلصت من عدد سفنها ، ولم تجد بسبب انشغال الحكومـــة في تلك الحروب عناية ورعاية ، ولهذا اقتصر نشاطها على البحر الأحمر وعلى السواحل الافريقية التي كانت عـــلى صلات حسنة بالبيزنطيين . فكانت تصل الى ميناء (أدولس) ، ومنه يصل التجار الى أسواق الحبشة الداخلية ، أو الى موانى (سقطرى) ، وقد كان بها مستوطنون يونانيون، أقاموا فيها منذ أمد طويل ، وبنوا بها كنائس ومستوطنات للاقامة فيهـا ، وظل بعضهم بها الى أيام الإسلام .

وكانت السفن اليونانية تموّن نفسها بما تجده في (ادولس) وفي (سقطرى) من تجارات ، بعضها من نفائس تجارة الهند جاءت بها السفن الساسانية الى هـذه المواضع ، فيشتريها التجار اليونان ويأخذونها الى بلادهم .

ويذكر أهل الأخبار ان (سقطرى) كانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر ، وكان بها قوم من اليونان يحفظون أنسابهم محافظة شديدة . وقد كانوا بها

من أيام ما قبل الميلاد ، وربما كانوا بها قبل أيام (الاسكندر) . ولما ظهرت النصرانية تنصر من كان بها من اليونانيين . ويذكرون ان قوماً منهم طرحهم (كسرى) في هذه الجزيرة . وكانت بوارج الهند تأوي اليها . وقد اشتهرت بالصبر الجيد الذي لا يوجد مثله في غيرها ، وبدم الأخوين ، وهو صمغ شجر يسمونه (القاطر) ، وهو (الأيدع) ، وقد ساكن العربُ اليونانَ[1] . ويذكر أهل الأخبار ان (أرسطو) ، هو الذي أشار على (الاسكندر) ، بإجلاء أهل (سقطرى) ، وإسكان طائفة من اليونان بها ، لحفظ (الصبر) لعظيم منفعته . وذكروا ان بينها وبين (المخا) ثلاثة أيام مع لياليها ، وان من مدنها : (بروه) و (ملتده) ، و (منيسة) ، وهي مسكن ملك الزنج[2] .

أما البحرية والتجارة البحرية الساسانية ، فإننا لا نعرف عنها في هذا العهد معرفة واسعة ، ولا نستطيع أن نتحدث عن وجود قوة بحرية ساسانية ، أو نشاط بحري في البحر الأحمر في كل العهود ، وإنما كان أقصى ما وصل اليه نفوذ الساسانيين في البحر ، هو باب المندب ، أي مدخل البحر الأحمر ، حيث وقفوا عنده . وقد صار البحر الأحمر ، منذ استيلاء اليونان والرومان على مصر ، بحراً يونانياً رومانياً بيزنطياً ، حرسوه بأساطيل قوية ، ضمنت لهم التفوق فيه ، فلم يكن في وسع الفرس ولوجه أو التوغل فيه .

وقد ذكر أن (أردشير) الأول (٢٢٥ – ٢٤١ م) بنى جملة موانى بحرية وأن (نرسي) (٢٩٢ – ٣٠٢ م) عقد صلات ودّية مع ملك الزنوج في شرق الصومال ، وأن (سابور) الثاني حوالى سنة (٣١٠ م) هاجم البحرين ، وأقام حامية بها ، وفتك بقبائل عديدة ، وذلك رداً على هجوم تلك القبائل على سواحل فارس .

وصار للفرس نشاط ملحوظ في الخليج وفي المحيط الهندي . وقد أنشأ الفرس جملة كنائس في سواحل الهند وسقطرى ، أنشأها الفرس النساطرة ، وكانوا تجاراً ، نزلوا في هذه المواضع للاتجار ؛ كما كانت هنالك سفن فارسية في (أدولس) . وكان الساسانيون يستغلون الظروف الحرجة ، والأوضاع القلقة التي

---

١ البلدان (٥/٩٣ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٢٧٣) ، (السقطري) .

تقع في انبراطورية الروم ، فيزيدون من نشاطهم في البحر ، ويمعنون في مطاردة التجـــار البيزنطيين في البحر العربـي وفي الخليج وفي الهند ، حتى قلّ عدد سفن الروم ، في المحيط ، واكتفت بالوصول الى باب المندب والسواحل الافريقية في بعض الأحيان ، عند اشتداد الأزمات ، ووقوع قلاقل داخليـــة ، أو نزول كوارث بالروم في الحروب .

وقد وجد الساسانيون أن من الأصلح لهم نقل التجارة الآتية الى تجـــارهم من الصين والهند وسيلان الى الخليج حيث لا يزاحمهم أحد ، ومنه الى العراق ، أو من الهنـــد والصين الى فارس ، ثم العراق ومنه الى (نصيبين) ، أو الى بلاد الشأم ، لبيعها الى البيزنطيين . وفي جملة مواد هذه التجارة (الحرير) الذي كان مطلوباً عند البيزنطيين ، لأنه من الألبسة الفاخرة بالنسبة للطبقة الحاكمة ولرجـال الكنيسة وللطبقة المترفة المرفهة ، فكان يباع بأغلى الأثمان[1] .

وقد دخل الأحباش البحرَ ، فكانوا يسيرون سفنهم بـــين السواحل الافريقية والسواحل العربية الغربية والجنوبية . ولو لم تكن لهم قوة بحريـــة ما تمكنوا من الاستيلاء على اليمن وعلى مواضع من العربية الجنوبية جملة مرات . آخرها فتحهم اليمن سنة (٥٢٥) للميلاد . وقد تولت سفنهم نقل حاصلات الحبشة والسواحل الافريقية إلى بلاد العرب ، وكان التجار العرب ينقلون هذه السلع الى بلاد الشأم أو العراق . وقد ذكر أهل الأخبار ان (الجار) ، وهي مدينة على ساحل بحر القلزم بينها وبين المدينة يوم وليلة وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل ، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، كانت فرضة ، ترفأ اليها السفـــن من الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، وبحذاء الجار جزيرة في البحـــر تكون ميلاً في ميل لا يعبر اليها إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة[2] .

ولكن قوة الحبشة البحرية لم تكن قوة قوية ضخمة ، ولم تكـــن مكونة من سفن كبيرة ذات مرونة وقابلية على الحركة ، بل كانت سفناً صغيرة لا تضاهي السفن اليونانية في الضخامة وفي الفن ، ولم تكن كثيرة العدد، ولا سيما في الجاهلية القريبة من الاسلام ، بدليل ما ورد في بعض الروايات من ان السفن التي حملت

---

١ Runciman, Byzantine Civilization, p. 164.

٢ البلدان (٣/٣٥) .

جيش ملك الحبشة إلى اليمن لاحتلالها سنة (٥٢٥) للميلاد ، وذلك في عهد (ذي نواس) كانت سفناً يونانية أمر القيصر بارسالها إلى الحبشة لحمل الجيش الى اليمن[١] . وبدليل ما ورد في روايات إخراج الحبش وطردهم من اليمن ، من ان السفن التي حملت الفرس إلى اليمن كانت ثماني سفن ، غرق منها سفينتان ، وبقيت ست سفن فقط ، وقد تغلب من كان بها مع ذلك على الحبش . فلو كان للحبش أسطول بحري قوي ، ولو كانت لهم هيمنة على البحر ،لما كان في إمكان هذه السفن الفارسية الست الوصول الى مياه اليمن ، وإنزال ما فيها من جنود ، ومن التغلب على الحبش والقضاء على حكمهم هناك .

وضعف بحرية الحبشة ، هو الذي جعلها لا تستطيع الوفاء بوعدها للقيصر (جستنيان) « Justinian » في شراء الحرير من الهند ومن وراء الهند ، وبيعه للروم . فقد كان هذا القيصر قد أرسل في عام (٥٣١ م) وفداً الى (أكسوم) ، ليفاوض الحبش في هذا الموضوع لحرمان الساسانيين من ربح كبير كانوا يجنونه من الاتجار بالحرير المستورد من الهند ومن وراء الهند ، فوافقوا على ذلك ،لكنهم لم يتمكنوا في النهاية من الوفاء بالوعد ، لعدم تمكن سفنهم البحرية من الوصول الى الهند ومن منافسة التجار الفرس الذين كانوا قد استقروا في سيلان وفي الهند وفي مواضع أخرى منذ عهد طويل[٢] .

ولم يتمكن الأحباش أن يُفيدوا فائدة تجارية كبيرة من فتحهم لليمن . ولم يحصل البيزنطيون على ما كانوا يتوقعون الحصول عليه من الاتصال بالحبش من البرّ ، وذلك عن طريق (المقاطعة العربية) في جنوب بلاد الشأم فالحجاز الى اليمن . فلم يتمكن الحبش من احتلال الحجاز ، للاتصال بالروم . وأخفق (أبرهه) في الاستيلاء على مكة على نحو ما تحدثت عنه في موضعه . وتمكن الفرس من طردهم من اليمن بكل سهولة ، دون أن يقوم الحبش ولا حلفاؤهم البيزنطيون بإرسال قوات بحرية لمقاتلة السفن الساسانية القليلة التي جاءت بمقاتلين من المساجين المجرمين ، لا بجيش نظامي مدرب ، وقد تمكنوا مع ذلك من التغلب على الحبش ، بمساعدة كبيرة بالطبع من اليمانيين أنفسهم الذين كانوا قد أعلنوا

---

١ الطبري (٢/١٢٧) .

٢ Procopius, Persian Wars, I, 29, 9-13, Malalas, 18, 456-459.

ثورة عامة عـــلى الحبش . ولو كان للحبش أو لحلفائهم البيزنطيين أساطيل من السفن المحاربة القوية ، لمـــا تمكن الفرس من الاستيلاء على اليمن بتلك القوة الضعيفة !

ولم يكن الساسانيون أقوياء في البحر عند ظهور الاسلام ، وآيـة ذلك هو ان عاملهم على اليمن ، كان يرسل ألطاف اليمن وما يجمعه منها إلى (كسرى) عن طريق البر ، وقد تحدثت عن تعرض (بني تميم) بقافلة كسرى التي كانت قادمة من اليمن في طريقها الى (المدائن) . ولو كان للفرس أسطول قوي من سفن ضخمة على نمط سفن البيزنطيين ، لاستخدموه واسطة للنقل بين اليمن والعراق ، ولسمعنا بوجوده في البحر . وقد يقال إن الفرس استخدموا البر ،لأنه أسهل عليهم من البحر ، وأقصر مسافة وأسرع من حيث الوقت ، ثم هو يمر بأرضين صديقة للفرس أو موالية لهم ، أو تابعة لأمراء موالين لهم ، خاضعين لسيادتهم ، وليس في ذلك دليل على عدم وجود أسطول قوي لهم في البحر ، ولكننا مـــع موافقتنا على هذا التعليل ، فإننا لا نسمع في أخبار أهل الأخبار المنقولة من روايات فارسية أصلية ، ما يفيد بوجود فعل وأثر لأسطول ساساني ما وراء عمان إلى السواحـــل الافريقية ، ثم إن الفرس كانوا قد تحكموا في السواحل العربية الجنوبية قبل فتحهم لليمن،ولكننا لا نجد في هذا العهد أثراً لحكم فارسي على السواحل العربية الجنوبية، مما يدل على زوال حكمهم عنها وعدم وجود أسطول ساساني في مياه هذه السواحل، فتخلصت منهم ، واستقلت بأمرها وادارتها .

وقد استفاد أهل مكة ، من الأحداث التي وقعت في اليمن ، ولا سيما بعـــد موت أبرهة وموت مشروعه في الاستيلاء على مكـــة قبل وفاته . وإني أرى أن حملة (أبرهة) على مكة ، لم تكن حملة غايتها هدم الكعبة ، ونقض قواعدها ، كما يذكر ذلك أهل الأخبار ، وإنما كانت لدوافع اقتصادية وسياسية ، فقد كانت مكة قد برزت وظهرت الى الوجود،قبل أبرهة ، واستغل أهلها مواهبهم وذكاءهم في كيفية جمع المال ، حتى صاروا تجاراً ووسطاء في التجارة ، يتاجرون بين بلاد الشأم واليمن ، وبـــين الحبش والعراق ، وصاروا أصحاب مال ، لهم نقود : دنانـــير ، ودراهم ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك مما يسيل له لعاب التاجر وصاحب المال ، أضف الى ذلك وقوع مكة في موقع مهم ، والاستيلاء عليه يمهد للسير نحو بلاد الشأم ، للاتصال بالروم ، أصحاب مشروع الحملـة الأصليون ،

كما تحدثت عن ذلك . فالعوامل إذن اقتصادية سياسية ، وليست العوامل التي ذكرها أهل الأخبار .

وقد ساهم أهل الهند في تسخير البحر كذلك ، فكانت سفنهم تمخره ما بين الهند وساحل الخليج الى (الابلة) . كما كانت تتجه نحو (سقطرى) وسواحل افريقية الشرقية . فقد ذكر أهل الأخبار أن (بوارج الهند) كانت تتاجر مع هذه الجزيرة[1] . وقد مونت الهند جزيرة العرب بالحديد الجيد ، الذي صنعت منه السيوف الهندوانية ، نسبة الى الهنـــد . و (التهنيد) ، عمل الهند . كما مونتهم بالعود الطيب ، وبالخشب الصلد[2] .

وبظهور الاسلام ، وباستيلاء المسلمين على مصر وعلى شمالي افريقية ، وبفتح بلاد الشأم والعراق وايران وما وراء ايران تغير الحال بالطبع ، فماتت الانبراطورية الساسانية ، ومات أسطولها معها ، وانقطعت صلة البحرية البيزنطية بالبحـر الأحمر وبالمحيط الهندي ، وأبعد الأوروبيون من البحار الدافئة الى أن تبدلت الدنيا مرة أخرى ، فظهر المكتشفون الأوروبيون وفي مقدمتهم البرتغال ، فعاد التفوق البحري للغرب ، وانتزع البحر من البحرية الاسلامية ، لأنها ظلت جامدة محافظة لم تحدث تغيراً في هندسة السفـن ، ولا في أسلوب القوى المحركة لهـا وفي قابليتها على الحركة ، فصارت عاجزة عن مقاومة العقـل الحديث ، وغلبت على أمرها نتيجة جمود العقلية وعدم التطور مع عقلية الزمن .

هذا ولا بد لي هنا من لفت نظـر القارىء الى ورود شيء في كتب أهـل الأخبار عن حملات الروم على بلاد العرب وعلى البحر الأحمر ، ولو ان هذا المذكور المدون في كتبهم ، هو من نوع القصص المعروف المألوف الـذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار ، فيه مبالغة وغرابة وخيال ، وفيه سذاجة تنم عن عقليـة سطحية تروي كل ما يقال لها من غير نقد ومناقشة . وقد أخذ من أهل الكتاب وفي الاسلام في الغالب . ولكنـه قصص يستند — على كـل حال — الى أصل وسبب وإن كان بعيداً . ثم انه قصص طريف يريك مبلـغ عـلم القوم بأحوال الماضين ، وكيف يروون قصص الحوادث المتقدمة وينقلونه على انه تأريخ للماضين. ويكاد يكون أكثر تأريخ من تقدم زمن الاسلام من هذا النوع .

---

١ البلدان (٥/٩٣) .

٢ تاج العروس (٢/٥٤٧) ، (هند) .